سلسلة الأدب الكتابي

سفر التكوين

الدكتور القس لبيب مشرقي

سلسلة الأدب الكتابي

قصص الكتاب المقدَّس

سفر التكوين

الدكتور القس لبيب مشرقي

WATER AND LIFE ● VIRGINIA ● U.S.A.

الكتاب: قصص الكتاب المقدَّس
المؤلف: الدكتور القس لبيب مشرقي
الطبعة الأولى: ١٩٥٢، مصر
الناشر: لجنة النشر المشتركة، مطبعة النيل المسيحية
الكتاب الأصلي أصبح public domain
ووُضع على موقع الجامعة الأمريكية ببيروت ومكتبة جامعة كولومبيا بنيويورك

الطبعة الإلكترونية الحديثة:
التفسير الأدبي للكتاب المقدَّس
(١) سفر التكوين / ٢٠٢١
الإعداد والإخراج: ماء وحياة
الرسومات: للفنان العالمي جوستف دوري Gustave Dore
Gustave Doré Bible illustrations copyright free
© كافة الحقوق لهذه الطبعة محفوظة، فلا يجوز استخداها أو طبعها لغرض تجاري

تصدير

يسرني أن أصدر هذا الكتاب وهو تفسير أدبي لقصص الكتاب المقدَّس.

وقد كتب هذا التفسير في أجزاء ومقالات متنوعة الدكتور القس لبيب مشرقي في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي.

وقد قمتُ بإخراجه في الصورة التي تراها الآن.

أتمنى أن يتعرَّف قارئ القرن الحادي والعشرين على «الكتاب المقدَّس»، إذ أكرِّر ما سبق وأن كتبه الدكتور القس لبيب مشرقي للأجيال التي سبقت جيلنا:

فإذا ما قرأت هذا الكتاب وأعجبك فعُد إلى «**اَلْكِتَابُ اَلْمُقَدَّسْ**» عُد إلى ذلك «**الكتاب**» فإنَّه النسخة الأصلية التي كتبتها يد القدير، لا الصورة الممسوخة التي نقلتها يد عاجزة.

عُد إلى الكتاب.

أسامة خليل أندراوس

يولية ٢٠٢٠

الفهرس

في داخل الكتاب ٦
١ قصة الخلق ١٢
٢ أبو البشر ١٦
٣ الحيَّة ٢٤
٤ الأم الأولى ٢٩
٥ الأخَّان ٣٥
٦ الهارب ٣٨
٧ الرجل الذي سار مع الله ٤٣
٨ قوس قزح ٤٧
٩ بابل ٥٤
١٠ أب المؤمنين ٦١
١١ فآمن أبرام بالله ٦٥
١٢ إسماعيل ٦٩
١٣ إسحاق ٧٤
١٤ الأميرة ٨٠
١٥ المرأة التي صارت عمود ملح ٨٨
١٦ ملك ساليم ٩٦
١٧ اختيار الزوجة ٩٩
١٨ أ- أسرة منقسمة ١١١
١٩ ب- السياسة والحيلة..... ١١٥

٢٠ ج- بيت إيل ١٢٣
٢١ د- يعقوب في أرض الغربة «الزوجتان» ١٣٠
٢٢ يعقوب ولابان..... ١٣٨
٢٣ راحيل ١٤٥
٢٤ هـ - إسرائيل ١٥٠
٢٥ و - تجارب نارية ١٥٤
٢٦ صاحب الأحلام ١٥٩
٢٧ محمود ١٦٣
٢٨ الطريق إلى العرش ١٦٧
٢٩ الخطية التي دُفِنَتْ في كنعان تستيقظ في مصر ١٧٩
٣٠ يعقوب يخاطب الأسباط قبل موته ١٩٤
٣١ صفنات فعنيح ١٩٧

في داخل الكتاب

كنتُ أسمع عن الكتاب منذ أن بدأت أفهم العالم الذي دخلته!

كان أبي يحدِّثني عنه ويحدثني عما رآه ويراه فيه. كان يدخل ذلك الإقليم الكبير ويعود وهو يحمل صورة رائعة لأشخاص وأشياء. وكنت لا أملُّ أحاديثه!

ومنذ خمسين سنة أو أزيد قليلاً «دخلت» الكتاب لأول مرة. وكان انفعالي عظمة عندما رأيت «الجنة» وأشجارها، شجرة معرفة الخير والشر وشجرة الحياة. لم أستطع في ذلك الوقت أن أدخل إلى أبعد من الباب. ولكني في ذلك الحيز القريب كنت أراني في عوالم لا نهاية لها، الشمس والقمر والنجوم، الأشجار والأطيار والأسماك والحيوانات. ولقد وقفت طويلا أمام آدم... وأمَّا حواء فلم استطع أن أرخي عيني عنها!

ولقد جلتُ مع آدم وحواء في البستان وقابلتُ معهما الحيَّة. وتأسَّيتُ لهما وهما يشعران بالعُري. وخرجت معها من «الجنة» ولو أني لم أخرج من الكتاب!!

ومن ذلك الوقت بقيتُ داخل الكتاب. وتعرَّفتُ إلى أشخاص كثيرين وإلى أماكن كثيرة. وقد وقف الأشخاص أمامي صفّاً طويلاً جداً ولكني تحدثت مع كل واحد منهم. نعم إنَّ بعضهم مرَّ أمامي كالطيفِ العابر، ما أن ظهر حتى اختفى. وبعضهم لم يشأ أن يتحدث معي. ولقد حاولتُ أن أكشف أسرار الكثيرين وكشف

بعضهم عن سرِّه ولكن الأكثرين لم يبوحوا بأكثر مما كنت أعرف!

وقد قامت صداقة بيني وبين عدد غفير منهم وقامت مشادات بيني وبين عدد آخر. وأكثرت من سلوك أماكن معينة وأقللت من سلوك أماكن أخرى. وقد فهمت حديث البعض تماماً ولم أفهم حديث غيرهم فهماً كاملاً!

وهذه الصورة التي أقدِّمها في كتابي هذا هي ما فهمته «أنا» من أولئك الأشخاص وقد لا يكون فَهمي صحيحاً تماماً ولكنه الفهم الذي فهمته أنا وأثَّر انطباعات الحوادث على ذهني!!

ها قد مرَّت خمسون سنة وأنا في داخل إقليم الكتاب وسأستمر إلى أن يدعوني سيد الكتاب إليه لأرى النسخة الأصلية من الصور التي رأيتها فيه أي لأرى سيدي نفسه وأرى آدم وحواء... وذلك الصَّف الطويل من البشر وأكشف الأسرار التي أخفتها الأرض لأني هناك سأعرف كما عرفت!

لكن لماذا أحدِّثك عن ذلك الإقليم السعيد، لماذا لا تأتي معي. لماذا لا تقتحم ذلك المعقل المبارك. أنا أعلم أنَّك تخشاه. إنَّه يبدو ضخماً كبيراً وأنت تحس أنه ليس من السهل أن تسير فيه بمفردك. لذلك أدعوك لأن تأتي معي لأرافقك في رحلة خاطفة. هلُمَّ بنا إلى عتبة الكتاب. إنَّه ليس كتاباً واحداً. إنَّه مجلدان كبيران الأول كتب العهد القديم والثاني كتب العهد الجديد وسنكتفي في جولتنا الأولى بالمجلد الأول!

تدخل ذلك الكتاب الكبير فيلاقيك أول ما تلاقي خمسة كتب تدعى كُتُب موسى أو التوراة أو كُتُب الشريعة أو الناموس وهي التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية. في الكتاب الأولى

ترى الإنسان الأول وتسير معه ومع أبنائه إلى أن... يُدفن يعقوب في كنعان ولكنك تجد أولاده لا يزالون في مصر! وفي الكتب الأربعة التالية ترى موسى يُخرِج أبناء يعقوب من مصر ويسير بهم في البرية ويضع لهم الشرائع الطقسية والأدبية ثم يموت دون أن يدخلهم في أرض كنعان!!

وبعد أن تسمع الشريعة مرة ثانية في «التثنية» تدخل القسم الثاني من الكتاب وفيه اثنا عشر كتاباً هي يشوع والقضاة وراعوث وصموئيل الأول والثاني وملوك الأول والثاني وأخبار أيام الأول والثاني وعزرا ونحميا وأستير. وفي هذه الكتب تدخل مع بني يعقوب إلى كنعان وتشاهد عصر تكوين الأمة بقضاتها وملوكها أنبيائها وتشاهدها في مختلف أطوارها من نجاح وفشل وفشل ونجاح!

ولقد تتضايق من ذلك الشعب الذي لا يحسن التصرُّف مع الله بل الذي يعاند إرادته ويقاوم رسله، وترغب أن تنفِّس عن نفسك فتدخل القسم الثالث من الكتب وهو الكتب الشعرية وتبدأ بقصة أيوب ثم تدخل سفر المزامير التي وضع داود أكثرها وبعد ذلك تتجول في كتب سليمان الثلاثة الأمثال والجامعة والنشيد وهي خلاصة حكمة ذلك الملك العظيم!!

وعند ما تخرج من النشيد تدخل إلى القسم الرابع وهو كتب الأنبياء، وكتب الأنبياء سبعة عشر كتاباً تنقسم إلى قسمين خمسة وتدعى بالأنبياء الكبار وهي إشعياء وإرميا ومراثي إرميا وحزقيال ودانيال.

واثنا عشر وتدعى بالأنبياء الصغار وهي هوشع ويوئيل

وعاموس وعوبديا ويونان وميخا وناحوم وحبقوق وصفنيا وحجي وزكريا وملاخي. وأساس التسمية يعود إلى حجم الكتب فإنَّك إذا أخذت إشعياء أو إرميا أو حزقيال فإنَّك تجد كل واحد من هذه بمفرده يزيد في حجمه عن مجموع الأنبياء الصغار معاً. ودانيال وحده يساوي مجموع أكبر كتابين من كتب الأنبياء الصغار. أما مراثي إرميا فقد وضع مع الأنبياء الكبار لأنه لم يمكن فصله عن إرميا!!

والأنبياء الستة عشر يتصل ثلاثة عشر مهم بوقت خراب الأمة وثلاثة تنبَّأوا بعد السبي... وقد تمَّ السبي في فترتين فسُبِيَت المملكة الشمالية حوالي ٧٣٤ - ٧٢١ قبل الميلاد. وقد تنبَّأ قبل تلك الفترة وخلالها الأنبياء يوئيل ويونان وعاموس وهوشع وإشعياء وميخا.

أما المملكة الجنوبية فسقطت بين ٦٠٦ - ٥٨٦ قبل الميلاد وأنبياء تلك الفترة إرميا وحزقيال ودانيال وعوبديا وناحوم وحبقوق وصفنيا.

وقد رُدَّ سبي الأمة حوالي ٥٣٦ - ٤٤٤ وتنبأ في تلك المدة حجي وزكريا وملاخي.

وأما رسائل أولئك الأنبياء فلم توجه كلها إلى هيئة واحدة فقد وجه عاموس وهوشع رسالتهما إلى إسرائيل ورسالة يونان وناحوم إلى نينوى ودانيال إلى بابل وحزقيال إلى المسبيين في بابل وعوبديا في أدوم. ويوئيل وميخا وإرميا وحبقوق وصفنيا وحجي وزكريا وملاخي إلى يهوذا!

ولا يسمح المجال بسط رسائل كل نبي بالتطويل لذلك نكتفي ببسط خلاصة كل رسالة في أضيق حيز. فرسالة يوئيل

رؤيا عصر الإنجيل وجمع الله الأمم، ويونان إشارة إلى اهتمام إلٰه إسرائيل بأعداء إسرائيل. وعاموس ينبيء عن خيمة داود الساقطة وعودة بيت داود إلى حكم العالم. وهوشع يقدم «الله المرفوض من إسرائيل سيكون يوماً ما إلٰه كل الأمم» وإشعياء يعلن أن له بقية ومن أجلها يكون للأمة مستقبل مجيد. وميخا يذكر مجيء السيد من بيت لحم وملكه العام. وناحوم يتحدث عن دينونة وملاشاة نينوى. وصفنيا عن مجيء إعلان جديد باسم جديد وإرميا عن خطية أورشليم والقضاء عليها ومجدها الآتي. وحزقيال عن سقوط أورشليم ورد سبيها ومجدها الآتي. وعوبديا عن هلاك أدوم لإساءتها لشعب الله. ودانيال من المالك الأربع والمملكة الأبدية. وحبقوق عن يقينية النُّصرة الكاملة لشعب الله. وحجي عن الهيكل الثاني ومجيء الهيكل الأعظم!

وزكريا عن الملاك الآتي، بيته ومملكته العظيمة. وآخر الأنبياء ملاخي وقد أشار إلى عهد جديد آتٍ. ولعل نور مسيًّا قد أنار له السبيل فأبصر على بعد أربع مئة سنة السيد يأتي إلى هيكله لينقي ويصفي ويشفي!

ولعلَّ من اللائق أن أذكر إني وأنا أجوس خلال «ملكوت الكتاب» وأبصر الروائع كنت أحاول أن أنقل تلك الروائع بأمانة ولكني لم استطع. لقد وقف قلمي في يدي وعجز عن أن يصور الجمال والرواء لتلك الأقاليم الفائقة الروعة. ولأن عجزت أقلام الكتبة الملهمين عن نقل الصورة على حقيقتها فهل يستطيع قلم عاجز؟ إنَّ كلَّ ما تشاهده من جمال في قصص هذا الكتاب -إن كان فيها شيء من الجمال- إنَّما هو انكسار النور السماوي الذي

يقع عليها. وكل ما تراه من عيب هو ظلال الكائن الأرضي الذي يحاول أن ينقل إلى الأرض جواهر السماء!!

ولا أريد أن أتحدث هنا عن جهود بذلت في إخراج هذا الكتاب ولا عن حياة سكبت أو نور عين ضاع في سبيله. كلَّا. لا أريد أن أتحدث عن شيء من ذلك، لأني سعدت في إخراجه سعادة لم أحس بمثلها بأي غنم لقيته في حياتي! كنتُ أعيش في الكتاب بالقرب من سيدي وكنت أقلب الكنوز السماوية بشغف ولذة أنستني كل شيء حتى الحياة نفسها!

ولست أبغي من إخراج الكتاب أي ربح مادي وهل هناك مادة تساويه؟ لقد نقلت جواهر الله في الكتاب وأين من يستطيع أن يدفع ثمن جواهر الله؟

كل ما أرجوه أنا أن يصل الكتاب إلى أكبر عدد من المتكلِّمين بالضاد، إلى خدام الكلمة وإلى الآباء والأمهات وإلى معلِّمي ومعلِّمات مدارس الأحد. وإلى معلِّمي الدين في المدارس اليومية وإلى طلبة الكليات في الجامعة وطلبة المعاهد والمدارس الثانوية.

فإذا ما قرأت الكتاب وأعجبك فعُد إلى «الكتاب المقدَّس» عُد إلى ذلك «الكتاب» فإنَّه النسخة الأصلية التي كتبتها يد القدير، لا الصورة الممسوخة التي نقلتها يد عاجزة.

عُد إلى الكتاب.

ديسمبر ١٩٥٢

القس لبيب مشرقي

١
قصة الخلق

«وَقَالَ ٱللهُ: «لِيَكُنْ ... فَكَانَ» (تكوين ١ : ٣)
«اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ ٱللهِ، وَٱلْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ»
(مزمور ١٩ : ١)

كان يومٌ لم تكُن فيه سماء ولم تكن أرض!

لم تكُن نجوم ولا جلد!

لم تكُن بحار ولا أنهار ولا جبال!

ولم تكن أشجار ولا أزهار ولا أطيار!

كان يوم لم يكن فيه شيء!!

ونحن نعود إلى ذلك اليوم، ونحدِّق بعيوننا الكليلة، نحاول أن نبصر وتعود أبصارنا دون أن نبصر شيئاً!!

على أنَّنا نعود مرة أخرى لنبصر. يا للعجب أننا ننظر!

إننا ننظر غير المنظور!

إننا ننظر الله!

قبل أن تكون سماء، وقبل أن تكون أرض، قبل أن تكون بحار وأنهار وجبال، قبل أن تكون أشجار وأزهار وأطيار، قبل أن يكون شيء

كان الله!!

اللهم نسجد عند قدميك!

ونقدم لجلالك العبادة!

ونسكب على مذبحك المحبة والولاء والطاعة!

ونلتمس أن تهبنا من روحك نعمة، فنراك بالإيمان ونلمس وجودك الأزلي!

لقد أحسَّت تلك النسمة الكائنة فينا بوجودك، دون أن تراك عيوننا، أو تسمعك آذاننا، أو تلمسك أيدينا. تحرك ذلك الكائن الإلهي الجاثم في صدورنا واتَّجه نحوك!

اللهم إننا نؤمن!

احسبنا يارب في عداد المؤمنين!

***

وخلق الله العالم!

متي خلقه؟

وكيف خلقه؟

وفي كم يوم خلقه ؟؟

اللهم إننا لا نعلم، ولا نريد أن نتعمَّق في بحوث يضلُّ في سبلها العلماء!

كانت الأرض خربة وخالية، وروح الله يرفُّ على وجه الغمر!

هذا أول ما رأيناه!

فهل خلق الله أرضاً خربة؟

وهل خلق الله أرضاً خالية؟

أم أنَّ الله كان قد سبق فخلق أرضاً عامرةً آهلة بالسكان، ولكن سكَّانها طلبوا أن تنفتح عيونهم فانفتحت، واتسعت معرفتهم فاخترعوا، واكتشفوا، ووصلوا إلى السيف والمدفع والبارود والقنبلة. بل وصلوا إلى أبعد مما وصلنا، فحوَّلوا الأرض نفسها إلى قنبلة ذرية، انفجرت في أحد الأيام فصارت الأرض خربة وخالية!

من يعلم؟

ربما كان هذا هكذا!

على أنَّ سيد الكون لا يترك الأرض خربة وخالية فهو يعيدها إلى العمران، و يخلق لها الإنسان!

وخلق الله النور في اليوم الأول!

وفي اليوم الثاني خلق الجَلَد!

وخلق الأشجار والنباتات في اليوم الثالث!

وفي اليوم الرابع خلق الشمس والقمر والنجوم!

وفي اليوم الخامس خلق الأسماك والطيور!

وخلق حيوانات الأرض والإنسان في اليوم السادس!

❊❊❊

هذه هي القصة البسيطة التي سطرها الوحي في قصة الخلق. وقد قّبَلَها المؤمنون كما جاءت، لا يسألون ولا يتعمَّقون. حتى جاء في الأيام الأخيرة علماء أو متعالمون، يسألون عن عُمْرِ الأرض. وهل يُعَدُّ بالألوف أم على الأصح بالملايين من السنين؟

ويسألون عن أيام الخليقة، هل هي ستة أيام، أم ست فترات من القرون؟؟

ويسألون عن النور كيف خُلق في اليوم الأول، بل الأرض كيف كانت قبل الشمس؟

ونحن لا نحاول أن نشرح أو نفسِّر. فإنَّ القصة جاءت في لغة الأدب لا في لغة العِلم. والقصد منها تصوير حقيقة، لا تفصيل دقائقها وأسرارها! ونحن لا يهمنا أن نعرف إن كانت الأرض قد خُلِقَت منذ ملايين السنين، أو من ألوف السنين، كل ما يهمُّنا أنَّها خُلِقَت. ولا يهمُّنا أن نعرف إن كانت الأرض قد وُجِدَت قبل الشمس أو الشمس قبل الأرض. إنَّما يهمُّنا أن الشمس والأرض قد وجدتا!

على أنَّ التفسير العلمي وجد له تأييداً في القصة الكتابية البسيطة عن الخلق! وازدانت الأرض بالنور؟ وبسط الجلد فوقها من فوق، والماء عليها من تحت وارتفعت الأشجار

وأورقت الأزهار!

وأنشدت الأطيار!

وسبحت الاسماك!

وردَّدت الخليقة تسبحة الخلق للخالق!

«اَلسَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ ٱللهِ، وَٱلْفَلَكُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ!»

٢

أبو البشر

«يَوْمَ خَلَقَ ٱللهُ ٱلْإِنْسَانَ. عَلَى شَبَهِ ٱللهِ عَمِلَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُ، وَبَارَكَهُ وَدَعَا ٱسْمَهُ آدَمَ يَوْمَ خُلِقَ»
«وَدَعَا آدَمُ ٱسْمَ ٱمْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ»
(تكوين ٥ : ١، ٢ و٣: ٢٠).

أتمَّ المولى إعداد الدنيا لسيدها الذي سيتسلَّط عليها. ها هي الأرض وقد اكتست بالخضرة، وانتثرت الأشجار محمَّلة بالثمار. وها هي مجاري المياه تسير متعرِّجة كخيوط من فضة. وها هي الأنوار ترسل أشعتها الذهبية والعسجدية، وترسم عقودة من درٍّ في صفحة الجلد! ها هي الطيور والأسماك والحيوانات، هذه الدنيا الجميلة كانت خالية من الإنسان. لذلك نسمع الله يقول «نَعْمَلُ ٱلْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ ٱلْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ ٱلسَّمَاءِ وَعَلَى ٱلْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ ٱلْأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ ٱلدَّبَّابَاتِ ٱلَّتِي تَدِبُّ عَلَى ٱلْأَرْضِ!!»

«فَجَبَلَ ٱلرَّبُّ ٱلْإِلٰهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ ٱلْأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً!».

هل خلق الله الإنسان في لحظة، أي أنَّه جمع تراباً وصوَّره ونفخ فيه نسمة الحياة، كل ذلك في لحظة من الزمان؟

أم خلقه من تراب على أطوار، جعل كل طور ينتقل إلى طور آخر في ألوف السنين أو ملايين السنين إلى أن جاء الطور الأخير، آدم؟

وهل جاء آدم كاملاً منذ خُلِق، كامل الإنسانية، من عقل وخُلُق، أم كملت إنسانيته بالتدريج؟

وهل جاء إنساناً منذ الأول، أم كان حيوانا جعل يتنقَّل -كما يقول أنصار نظرية النشء والتطور- من حيوان أدنى إلى حيوان أعلى، حتى وصل إلى القرد، ثم إلى الحلقة المفقودة، ومن الحلقة المفقودة إلى الإنسان؟

هذه أسئلة لا تزال على الكثير من الأفواه، ولا تزال تتردد من جيل إلى جيل، ولا تزال مثار نزاع بين من يسمُّون أنفسهم الجيل الجديد، ومن يتَّهمهم هذا الجيل بأنَّهم رجعيون متأخرون!!

أما نحن فلا نتعب أنفسنا بهذا التفسير أو بذاك. ولا يهمنا كيف جاء آدم ولا متى جاء. وإنَّما يهمنا أنَّه جاء. فقد أبصرناه في البستان رجلاً كامل الرجولة كامل الجمال، كامل العقل، كامل الفضل. كان على صورة الله في البر وقداسة الحق!!

وكان يقيم في البستان، سلطانا على المخلوقات وحاكماً عليها. إنَّه ينظر إلى الوحش فيخرج بريقٌ من عينيه، وإذا بالوحش يجمع نفسه قدامه ويهمهم بصوت خفيض ويجثم على الأرض عند قدميه!! ويلتفت إلى العقاب الطائر في الجو، فإذا بالعقاب ينحدر بكل تسليم، مضطرباً أمام تلك النظرة القوية، ويمس بمنقاره الطويل طرف قدم سلطانه وملكه..!!

لقد أعطاه الله السلطان على سمك البحر، وعلى طير السماء،

وعلى كل حيوان يدبُّ في الأرض!

ولقد قيل الكثير أيضاً في مصدر تلك السُّلطة. قال البعض إنَّها نقاوة حياته وطهارتها التي ملكت قلبه من قبل أن تدخله الخطية. فإنَّه عندما دخلت الخطية قلبه دخل الخوف. فلما دخله الخوف فقد الجانب الأكبر من عناصر سلطانه!!

وقال البعض إنَّ العقل الذي حباه المولى به كان هو مصدر تلك السُّلطة، ولا يزال الإنسان سلطاناً بعقله على كل كائنات الأرض!

وقال غيرهم إنَّها نَسَمَة القدير التي أودعها صدره، النسمة الإلٰهية التي صيَّرت من أبي البشر لا مخلوقاً عادياً، ولكن كائناً إلٰهيا، فيه ما في إلٰهه، ذلك العنصر الروحي يستمد منه سلطانه!

ولعلنا ننصف كثيرة إذا قُلنا إنَّه استمد سلطته من هذه الثلاثة معاً، من النسمة الإلٰهية ومن العقل ومن كمال البر!

ولسنا نعلم كم مكث آدم في الجنة!

ولكنه بعد قليل سئم الوحدة !!!

لم يجد لا في الجمادات ولا في الحيوانات ما يذهب عنه وحشته!

نعم كانت الجنة جميلة. كانت أنهارها بمائها الفضي تنساب متعرجة بين الخضرة فترسم أجمل صورة رسمتها يد فنان. وكانت الأشجار الباسقة بأزهارها وأثمارها تملأ العين وتشبع النفس!!

ولا شك أنَّ أبي البشر كان يحس براحة نفس واستقرار شامل وهو يجلس إلى الخضرة يتأملها، ويتأمل الشمس الغاربة، والنجوم ترسم قلائد من جواهر في قبة السماء! ويصغي إلى شدو الأطيار،

وهزيج البلابل... نعم كان أبو البشر يعيش في أجمل مكان، وبين أفضل رفقة. لم يكن إنسان آخر يشوِّه جمال الأرض، أو ينغِّص عليه راحته. ومنذ جاء الإنسان الثاني امتلأت الأرض بالمآسي. ولكنه برغم ما كان عليه من الراحة والاستقرار والسلام والغبطة، كان غير مستريح إلى وحدته. كان يحس وحشة تجعل جو حياته مغطى بظلام وانقباض!

وعندما جاءه المولى بالحيوانات والطيور دعاها آدم بأسماء، وكانت تمرُّ أمامه ذكر وأنثى. ولقد بلغت به وحشته حداً أحس فيه أنَّه أتعس كائن، حتى لقد حسد الحيوانات. لأنَّ كل ذكر كانت له أنثاه. أما هو فلم يجد له معيناً نظيره!!!

وقال الله: ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له معيناً نظيره!! وصنع الله حواء من إحدى أضلاع آدم!

أوقع الله سباتاً على آدم، ثم أخذ ضلعة من أضلاعه، وملأ مكانها لحماً.

وصنع من الضلعة ٱمرأة!!

واستيقظ آدم ليجد أمامه كائناً إنسانياً.

لا شك أنَّ حواء كانت جميلة بل آية في الجمال. فقد كانت النسخة الأولى التي صنعتها يد القدير. النسخة التي لم تلوِّثها أصابع البشر، والتي لم تتلف جمالها آثار الخطية. لا شك أنَّها كانت الجمال مصوراً!!

ولا شك أنَّ آدم أخذته نشوة، وهو يتسلم من الله زوجته الحسناء، وهو يقول: «هذه عظم من عظامي ولحم من لحمي، هذه تُدعى امرأة لأنَّها من امريء أُخِذَت!!»

فخلق الله الإنسان على صورته!

على صورة الله خلقه!

ذكراً وأنثى خلقهم!!!

وباركهم الله!

وقال لهم: «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض، وأخضعوها وتسلَّطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض!

لا نعلم كم بقى آدم وزوجته في الجنة!

يبدو أنَّ الأمر لم يطل معهما!!

كانت وصية الله لآدم يوم وكَّلَهُ على أشجار الجنة، أن يأكل من جميع أثمارها ما عدا ثمرة شجرة واحدة دعاها شجرة معرفة الخير والشر!!

تُرَى ماذا كانت تلك الشجرة، وما هو السِّر في أنَّ الأكل منها يقود إلى الموت كما أنذر الله آدم؟؟

قيل إنَّها كانت شجرة عادية، هي شجرة تفاح، أو شجرة عنب، أو سنبلة قمح. وأن الأمر لم يكن متعلِّقا بنفس الشجرة، وإنَّما موقف آدم بالنسبة لإلٰهه من الطاعة والعصيان!!

وقيل إنَّها لم تكن ثمرة حقيقية، وإنَّما. كانت ثمرة رمزية. وقد ربطوا بين الفاكهة المحرَّمة، وبين العلاقات الجنسية بين آدم وزوجته، العلاقة التي يقولون إنَّها لم يكتشفاها قبل ذلك. بدليل أنَّهما كانا عريانين وهما لا يخجلان!!!

وقيل إنَّه كان سرَّاً في نفس الشجرة، ورجَّح أولٰئك القائلون،

أنَّ الشجرة هي الكرمة. وأنَّ الخمر كانت نتاجها. وقالوا إنَّ أول من صنع الخمر كان آدم. وشرب آدم من الخمر فسكر وتعرَّي!!!

وأنا قد ذكرت لك هذه الآراء جميعاً، لا لأنِّي أرغب منك أن تؤمن بإحداها وإنَّما ذكرتها لتعرف ماذا يقول الناس. أما أنا فأرغب أن آخذ القصة كما جاءت ببساطتها في الكتاب المقدَّس!

كان آدم وامرأته عريانين!

وأمر الله آدم ألَّا يأكل من ثمرة شجرة معرفة الخير والشر محذِّراً إيَّاهُ أنَّه يوم يأكل منها موتاً يموت!

وحدَّث آدم زوجه بحديث الثمرة المحرَّمة!

وجاءت الحيَّة وكانت أحيل جميع حيوانات البرية، وأغوت حواء، فأكلت من الثمرة وأغرت زوجها فأكل!

ولما أكلَا انفتحت أعينهما وعَلِمَا أنَّهما عريانان!!!

وحاولا أن يسترَا عريهما بأوراق التين!

وحاولا أن يسترا خوفهما بالاختباء خلف أشجار الجنة!!

وأوقع الله العقاب!

وكان عقاب الحيَّة، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك!

وكان عقاب المرأة، بالتعب تحبلين، وبالوجع تلدين، وإلى رجُلِك يكون اشتياقك، وهو يسود عليك!

وكان عقاب الرَّجُل، بالتعب تأكل خبزاً كل أيام حياتك. إذا زرعت الأرض لا تعود تعطيك قوَّتها. بعرق جبينك تأكل خبزاً. حتى تعود إلى الأرض التي أُخِذت منها. لأنَّك ترابٌ وإلى تراب

تعود!!

وأوقع الله عداوة بين الحيَّة «ونسل المرأة» «هو يسحق رأسك وأنتِ تسحقين عقبه»!!

ويهمُّنا في كل هذا أنَّ آدم طُرِدَ من بستانه. وإنَّه بدأ يحسُّ بشدة وطأة الحياة، لأنَّ الأرض قَست عليه، وإنَّ طعامه لم يأته طيِّعاً سهلاً، بل اضطر أن يسكب من نفس حياته ثمناً لذلك الطعام. وتغيَّرت نفسيته فَقَدْ فَقَدَ الاطمئنان والهدوء وملأت المخاوف صدره، وضعفت سُلْطته على المخلوقات الأخرى!!

والطبيعة الجميلة فَقَدَتْ الكثير من بهائها وروائها. نعم قد بقيت الخضرة تحيط بالماء الجاري. ولكن كثيراً من الجدب تخلل أقاليم الخضرة. وبقيت الأزهار ترسل أريجها العطر، لكن أشواكاً نبتت حول تلك الأزهار - و بقيت الأطيار ترسل شدوها، والفلك يتحدث إلى الأرض في همس، والحياة تتجلَّى في زينتها ولكن تلك الحياة دخلتها خيوط الموت فألقت ظلاً من كآبة على كل جمالها!!

وجرثومة الخطية التي استقرت في الأرض لم تبق جرثومة صغيرة كما كانت، ولكنها أتمَّت مدة حضانتها، خرجت وليداً مكتمل القوة الشريرة. واستطاع ذلك الوليد عما فيه من عناصر الإيذاء أن يصبغ الأرض بالدماء وأن يملأها بالدموع. ولقد أبصر آدم فيما أبصر أحد ولديه يذبح أخاه. ووقف على جثمان القتيل يبكي بدموع أحرّ من الدماء. ووقف يتطلع إلى القاتل وهو يهرب بدموع امتزج فيها الغضب بالحزن والحب بالبغض، وحصد ثمار الخطية المرَّة في كل يوم من أيام حياته الطويلة!

على أن أشياء جميلة بقيت له!

فقد بقيت له حواء تقيم بيتاً ملأه الحب بنور أبهى من نور الجنة!

وبقى له العمل، يملأ وقته ويشغله عما يلاقيه من تعب ومن ألم. وعندما كان يحصد ثمار جهده كان البشر يتألق من خلال عَرَقه الساقط من جبينه!!

وبقى له الوعد، أنَّ نسل المرأة يسحق رأس الحية. فهو يتطلع إلى المستقبل المأمول برجاء. ولئن طال أمد انتظاره فإنَّه لا يزال يحتفظ بذلك الوعد. فإذا ما انتهت أيامه، لأنَّه تراب وإلى تراب يعود، فإنَّ الوعد سيصل إليه بكيفية من الكيفيات، وستتحقَّق عودته إلى البستان!

وهٰكذا استقبل أبو البشر حياته الجديدة راضياً مسلِّماً راجياً. ومضت السنون مُسرِعة، تحمل له في طياتها ما تحمل السنون من إشراق ودموع، من تحقيق آمال وخيبة انتظار، من أزهار وأشواك. فكان يتلقَّاها كلها بيقين الرجاء الذي حمله له ذلك الوعد القديم المبارك!

وعندما بلغ عمره قرابة الألف دعاه ربُّه إليه فانطلق حزيناً يبكي ولكنه انطلق إلى آخرته بدموع الرجاء.

٣

الحيّة

«فَطُرِحَ ٱلتِّنِّينُ ٱلْعَظِيمُ، ٱلْحَيَّةُ ٱلْقَدِيمَةُ ٱلْمَدْعُوُّ إِبْلِيسَ وَٱلشَّيْطَانَ، ٱلَّذِي يُضِلُّ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ... فَغَضِبَ ٱلتِّنِّينُ عَلَى ٱلْمَرْأَةِ، وَذَهَبَ لِيَصْنَعَ حَرْبًا مَعَ بَاقِي نَسْلِهَا ٱلَّذِينَ يَحْفَظُونَ وَصَايَا ٱللهِ، وَعِنْدَهُمْ شَهَادَةُ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ» (رؤيا ١٢: ٩ و١٧)

مرَّت بنا الحيَّة مروراً خاطفاً وإن كان أثر تلك اللمحة الخاطفة أعمق من كل الزمن!

فما هي هذه الحيَّة، ما هو تاريخها، وما هي تجربتها، وما هو مصيرها؟

إنَّ كل ما يقوله الوحي عنها لا يزيد عن الكلمات «كَانَتِ ٱلْحَيَّةُ أَحْيَلَ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ ٱلْبَرِّيَّةِ ٱلَّتِي عَمِلَهَا ٱلرَّبُّ ٱلْإِلٰهُ،»!

وإنَّ الحيَّة ذهبت إلى حواء وأغرتها على عصيان الله!

وإنَّ الله أوقع على الحيَّة عقاب بسبب ذلك!

ولكن الكتاب المقدَّس يذكر الحيَّة فيما بعد بأوصاف تكشف حقيقتها، بل يذكر صراحة في بعض المواضع الحيَّة القديمة أي إبليس!

وتتحدث الكتابات القديمة اليهودية عن الحيَّة، حديثاً لا يمكن أن يبلغ مرتبة الحقائق الموثوقة. ولكنَّنا إذا «غربلنا» ما كُتِبَ عن الحيَّة وحلَّلناه نصل إلى بعض الحقائق، أو ما يمكن أن يصل إلى

مرتبة الحقائق!

كانت الحيَّة حيواناً ما في ذلك من شك!

وكانت حيواناً كثير الحيلة كثير المكر!

قيل إنَّها كانت حيواناً جميل الصورة، جميل الصوت. وقيل إنَّها كانت تسير كما تسير الظرافة. وقال آخرون بل كانت في صورة الطاووس، وجمال صوت البلبل وليس هناك ما يمكن أن يُعتَبَر أساساً لمثل هذا الادعاء. سوى أنَّ عقاب الحيَّة شمل القول «على بطنك تسعين كل أيام حياتك»!

ولكن الحيَّة لم تكن هي الشيطان. وإنَّما قبلت أن تكون غلافاً له! دخل الشيطان في الحيَّة!

ولم ترَ حواء الشيطان ولكنَّها رأت الحية!

ولو أنَّها فتحت عينيها واسعتين لأبصرت الشيطان بارزاً في عيني الحيَّة وعلى لسانها. ولكنَّها كانت تنظر إلى الشجرة فلم تفحص الحية!

ولم يرتكب الشيطان بدعاً في استخدام الحية. إنَّه ماهر في استخدام كل أداة. أَلَا تتميز الحيَّة بالحيلة، إذنْ ليبادر بالاتِّفاق معها واستخدامها لإتمام غاياته!

ألم يفعل ذلك منذ استخدم الحيَّة إلى الآن؟

ألم يستخدم الحديد الذي كان يمكن أن يكون محاريث تفيد الزرع إلى سيوف تهلك الزرع والضرع؟

ألم يستخدم الصوت الجميل الذي كان يمكن أن يعلن اسم إلٰهنا ويمجِّده، إلى غناء قبيح يخفى اسم إلٰهنا ويهينه؟

ألم يستخدم «السينما» التي كان يمكن أن تكون أفضل أداة للوعظ والنصح والإرشاد إلى أداة تنشر سموم الخطية، وتبذر جرائم السرقة والقتل، وتملأ قلوب النشء بالشهوات التي تحدر بهم إلى أعمق الأوحال وأوحل الأقذار؟؟

ألم يبادر إلى «الراديو» الذي كان يمكن أن يحمل رسالة الله على أجنحة الهواء إلى كل أطراف المعمور، ويحدِّث العالم عن محبة الله ورحمته للخطاة والبائسين، فأصبح أداة تنشر الكُفر والإلحاد والدعوة للمعصية والسقوط الأخلاقي؟؟

إنَّ إبليس ماهر في سرعة استخدام الأداة، وهو يحسن انتقاء أداته. فقد تكون تلك الأداة شيئاً كالخمر، ومائدة القمار. وقد تكون شخصاً بل قد تكون صديقاً أو حبيباً أو أخاً أو زوجة!

وفي قضية أبي البشر اختار إبليس الحيَّة فأغوت حواء، واختار حواء فأغوت آدم!

ولعلَّ لنا درساً حرياً بالتأمل في «تواضع» إبليس. إنَّه لا يهتم بالظهور كما نهتم. إنَّه يختفي اختفاءً تاماً ويعطي «المجد» لغيره. إنَّنا لا نرى إبليس في قضية أبي البشر، ولكنَّنا نرى الحيَّة ولذلك سنتحدث عنها وحدها!

كانت حواء وآدم سعيدين السعادة كلها!

وكانا راضيين كل الرضا!

وكان إيمانهما بالله أقوي إيمان!

وجاءت الحيَّة تحاول أن تعكِّر عليهما رضاهما وتفسد عليهما إيمانهما!

أحقّاً قال الله «لا تأكلا» من كل شجر الجنة

لقد قال الله حقّاً «لا تأكلا» ولكنه قصر ذلك النهي على شجرة واحدة!

على أنَّه قال فعلاً «لا تأكلا»! لقد حرَّم عليهما أن يأكلا من إحدى الأشجار!

ومع أنَّ المرأة لم تدرِ بما حدث حقيقة إلَّا أنَّ جرثومة عدم الرضاء دخلت في قلبها.

هوذا بستان كبير فيه العدد الكبير من الأشجار ذات الأعمار، ولكن هناك شجرة صدرت الأوامر بصددها «لا تأ كلا»!

وهل كان عدم الرضا خطية الجائعين العُراة البائسين فقط؟ بل إنَّه ليصح أن نحذف الكلمة الأخيرة، فنقول هل كان عدم الرضا خطية الجائعين العُراة البائسين؟ إنَّنا لنرى الجائعين يكتفون بالكسرة اليابسة يتبلغون بها، والعُراة يكتفون بالخرقة يسترون بها، والبائسين يكتفون بابتسامة صغيرة من الزمن تمحو كل بؤسهم. أما الذين لهم الكثير فإنَّ البطر يملأ قلوبهم، وعدم الاكتفاء يبدو شعاراً دائماً لهم!!

ألا يكفيك يا آدم، ألا يكفيك ياحواء، بستان فيه من كل فاكهة زوجان تنعمان بجماله وتتمتعان بثماره؟ نعم. ولكن تلك الشجرة التي حرَّمها الله علينا، إنَّها لتبدو وحدها أكثر عدداً من كل ما في البستان من شجر!! وهكذا أحسَّ الزوجان بالحاجة ومرارة الحاجة. ولقد نلومهما وهما يبدوان كما لو كان الجوع قد أسغبهما. ولكننا نشفق عليهما لأنَّ عدم الاكتفاء شر من الحاجة!

وهكذا أفلحت الحيَّة في غرس بذرة عدم الاكتفاء فنبتت

شجرة الشكوى والمرارة والتذمُّر!

ولكن ثمت بذرة أخرى غرستها الحيَّة بمكر هي بذرة الشك. لقد بدأت حديثها بسؤال يبدو ظاهر البرارة. ولكن ذلك السؤال هزَّ ذلك الإيمان الممكَّن هزَّة لم يحتمل بعدها ذلك التكذيب الصريح!

- أحقًّا قال الله: «لا تأكلا من كل شجر الجنة»؟

- كلَّا. من كل شجر الجنة تأكل أما شجرة معرفة الخير والشر فقد قال الله: لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلَّا تموتا.

- لن تموتا.

كيف جسرت الحيَّة أن تنطق بهذه الكلمة النكراء، وكيف قبلت حواء أن تسمعها؟ كيف تأخرت عن أن تلطمها لطمة شديدة وتطردها من حضرتها وهي تصم السيد العظيم الصادق الأمين بما يتنزه عنه؟؟

ولكن ذلك السؤال الظاهر البرارة الذي ألقته في أول الأمر «أحقا قال الله» كان قد هزَّ عمد الإيمان في قلبها وبذر بذار الشك. وأثمرت تلك البذار، فلما قالت الحية: «لن تموتا» قالت المرأة هامسة لنفسها: «يغلب إنك صادقة»، بل قد امتدَّ بها الأمر فقالت: «بل إنك لصادقة!»

وهكذا سمعت حواء للحية فنظرت إلى الشجرة واستمرت تنظر والشجرة تزداد حلاوة في عينيها. فقد زادتها الشهوة حلاوة. فمدت يدها وأكلت وأعطت زوجها أيضاً فأكل.

وهكذا نجحت الحيَّة في الجولة الأولى!

٤

الأم الأولى

«وَدَعَا آدَمُ ٱسْمَ ٱمْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ» (تكوين ٣: ٢٠)

لا نعلم كم مضى على أبي البشر من الزمن وحده. قيل إنَّه قضى أسبوعاً وقيل شهراً وقيل أكثر من ذلك وقيل أقل. ولكنه أحسَّ بوحشة قاتلة وكان يحسد الحيوانات والطيور لأنَّ لكل حيوان وطير ألفه ورفيقه.

وقال سيد الأكوان ليس جيداً أن يكون آدم وحده فأصنع له معيناً نظيره! وصنع الله له زوجة!

وقد صاغها من إحدى أضلاعه!

ولقد أجمع أرباب العلوم أنها كانت آية الله في خلقه، فقد صاغتها يد الله، حسناء، جمَّلها بكل ما هو جميل. فكانت أجمل من الزهور وأرق من النسيم وأنقى من النور وأبهى من الشمس كما كانت ملتهبة العاطفة إذ صاغها الله من جانب القلب! وحملها المولى عز وجل إلى آدم وعقد قرانه عليها. وأخذ آدم بسحرها، فرحب بها، وقال: هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي. هذه تُدعى امرأة لأنَّها من امريء أخذت. ثم قال بروح النبوَّة: لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسد واحد!

ونحن لا نشك في أنَّ المرأة الأولى كانت الجمال المصوَّر لأنها كانت الطبعة الأولى التي أخرجها المولى عز وجل قبل أن تجري عليها الخطية ما أجرت على الناس. وبالرغم مما مرَّ على المرأة من آثار الخطية فلا تزال تحتفظ ببقية من جمال أمها، ولا تزال تفتن الرجال بذلك الجمال!

ومكثت المرأة الأولى مع الرجل الأول!

هل عاشا كزوجين؟

هل عاشا كشقيقين؟

هل كان الزواج في الجنة يشبه الزواج الذي نراه؟ هل كان فيه الحَبَل والولادة؟

وهل كان في إمكان الزوجين الأولين أن يُخرِجا نسلاً وهما في البستان؟

هذه وغيرها أسئلة لا نملك الجواب عليها. وإنَّما نعلم أنَّ الرجل الأول كان زوجاً شرعياً للمرأة الأولى. وإنَّ الزوجين تلقَّيا الأمر الإلٰهي أن يثمرا ويكثرا. وإنَّهما كانا في ذروة السعادة التي يشتاق كل زوجين أن يصلا إليها. وإنَّ محبَّتهما الواحد للاخر كانت محبة حقيقية لم تتلوث بعد بالخطية وما فيها من أنانية وشهوانية!

وعاشت المرأة الأولى مدة لا نعلم مقدارها ولكنَّها كانت أسعد فترة في حياتها الزوجية!

وجاءت الحيَّة إلى المرأة!

جاءت إليها وهي وحدها!

قيل إنَّها لم تشأ أن تستيقظ في أحد الأيام مع آدم، وآثرت أن

تنام فترة أخرى. وإنَّ آدم تركها ومضى إلى الجانب الآخر يعمل في البستان!

وجاءتها الحيَّة ووجدتها منفردة!

وقيل إنَّها كانت ترافق آدم في كلِّ جولاته وإنَّها كانت تسير خلفه وتعمل معه ولكنه كان يحتفظ بالرآسة عليها وإن كانت رآسة لا تعنُّت فيها ولا غطرسة. وإهَّا فكَّرت في أحد الأيام أن تعمل مستقلَّة فهي ذات شخصية كبيرة. ولماذا تحيا حياة ثانوية؟

وأخبرت رجُلَها بذلك وحاول أن يثنيها مبيِّناً أن في عملهما معاً ثمراً أزيد، وجهداً أقل، وسعادة اجتماعهما. وحاول أن يخبرها أنَّ حياته في البستان قبل أن تجيء كانت موحشة. ولكنها أصرَّت وتركته إلى الجانب الآخر بعيدة عن رجُلها!

وجاءتها الحيَّة ووجدتها منفردة!

ولا شك أنَّنا لا نعلم السبب الحقيقي لانفرادها. وإنَّما نعلم أنَّها كانت منفردة عندما جاءتها الحيَّة!

وخدعت الحيَّة المرأة الأولى بأن ولَّدت فيها الغرائز التي لا نزال نراها في المرأة. هل وُلِدَت هذه الغرائز، هل خلقتها فيها، أم أنَّ تلك الغرائز كانت في تركيبها مغلوبة بغرائز أسمى. وكان كل ما عملته الحيَّة أنَّها أيقظت تلك الغرائز؟؟

فهذه غريزة «الثرثرة» تجد ميدانها. كان كلامها مع رجُلها على قدر الحاجة، ولكن الحيَّة جاءتها تتكلَّم معها: «أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟» وكان يمكن أن يكون الجواب مجرد كلمة «كلا». ولكن غريزة الكلام استيقظت فيها فتقول: «من ثمر شجر الجنة نأكل وإنَّما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا

تأكلا منه ولا تمسَّاه لئلَّا تموتا»!!

وهذه غريزة «المبالغة» تبدو قوية. لا تأكلا منه ولا تمسَّاه لئلَّا تموتا. لم يقُل الله: «ولا تمسَّاه». ولا تزال هذه الغريزة ملازمة للمرأة تصل معها إلى حد الكذب.

وهذه غريزة «حُبّ الاطّلاع». إنَّها تسير بعيون مغلقة وتريد أن تنفتح عيناها وهي مستعدة أن تدفع أكبر ثمن في ذلك!

وهذه غريزة «الميل إلى التعاظم». إنَّها تريد أن تكون وزوجها مثل الله -ولا تزال هذه الغريزة عاملة في تاريخ العالم. تسوق أحياناً إلى خير وأحياناً إلى شرٍّ. تدفع المرأة رجُلها إلى أطماع تصل به أحياناً إلى الذروة وتصل به أحياناً أخرى إلى الحضيض!

وهذه غريزة «الغيرة» وزميلاتها تتجلَّى في نظرها وفي اشتهائها...

وهذه غريزة «الإغراء» تبدو في إقناعها رجُلها أن يأخذ الثمرة من يدها، ويأ كل مخالفاً لله في سبيل إرضاء زوجته!!

وإذا قُلنا إنَّ الحيَّة أيقظت تلك الغرائز فإننا لا نقصد أنَّها كانت فيها بالشكل الذي ظهرت به وإنَّما كانت مركبة بما يجعلها قابلة للسمو أو الانخفاض تبعاً لاختيار المرأة. فغريزة «الثرثرة» مثلاً، لم تكن إلَّا امتياز الكلام المنطقي، يمكن أن يسمو فيصير حكمة ويمكن أن ينخفض فيصير ثرثرة. وغريزة «الفضول» لم تكن في الأصل كذلك ولكنَّها كانت الجوع إلى المعرفة، يمكن أن يسمو فيصير بحثاً وراء الحقيقة ويمكن أن ينخفض فيصير فضولاً.. وهكذا!

ونجحت الحيَّة في توجيه الغرائز إلى الأدني!

وطُرِدَت المرأة الأولى وزوجها من الجنَّة!

ومنذ ذلك اليوم عرفناها باسم الأم الأولى حواء أم كل حي!!

وأقامت حواء لزوجها بستاناً آخر لا يقلّ جمالاً وبهاءً عن بستان عدن، ذلك هو بستان البيت. لقد حُرِمَت من كل ما في بستان عدن من مباهج. خرجت دون أن تأخذ معها شيئاً مما كانت تملكه في البستان، ولكنها أخذت حبَّها، و بذلك الحب بنت البيت الأول!

كان بيتاً خشن البناء!

وكان مؤثثاً بأخشن الأثاث!

وكان لا يضيء فيه نور كهربائي. وليس في سقفه ثريات!

كان كوخاً بدائيًّاً ينقصه كل شيء!

ولكنه كان أسعد بيت، إذ كان الحب يملأه، ويضيء جنباته، ويحول خشونته إلى ليونة، ونقصاته إلى ترف. في ذلك البيت سكبت الزوجة كل حبها لزوجها. وعاونته في عمله الشاق في الأرض. كانت تمسح عرق جبينه بقبلاتها، وتخفف آلامه بكلماتها الحلوة!

وفي ذلك البيت حبلت وولدت وذاقت في حبَلها وولادتها الآلام التي كانت ضريبة زوجيتها.. وولدت قايين وهابيل!!

وفي ذلك البيت بكت وناحت على جسد ابنها الصغير وعلى ضياع ابنها الكبير!!

وفي ذلك البيت تعزَّت وولدت ابناً ثالثاً وبنين وبنات!!

نعم في ذلك البيت استيقظت آمالها أحياناً ونامت أحياناً أخرى. ولكنَّها بقيت تتطلَّع إلى اليوم الذي ستعود فيه إلى البستان.

ولما يئست من عودتها بشخصها تطلَّعت إلى المستقبل الغامض وأبصرت في الدماء التي كان زوجها يسكبها على المذبح، ذاك الذي سيسير في طليعة أبنائها وبناتها ويردُّهم إلى البستان في موكب نصرته. ولو أنَّه سيسفك دمه في سبيل ذلك!

وماتت حواء وكثيرون من أبنائها ساخطون عليها وعلى أمومتها. ولكن الكثيرين يباركونها ويباركون أمومتها، تلك الأمومة التي حملت إلى التاريخ نوحاً وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وصموئيل وداود وحزقيا ومريم العذراء ويسوع المخلِّص!

نعم يسوع ابن مريم!

هو أيضاً يسوع ابن حواء!!

٥
الأخَّان

«فَحَبِلَتْ (حواء) وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «اَقْتَنَيْتُ رَجُلاً مِنْ عِنْدِ اَلرَّبِّ». ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ.» (تكوين ٤: ١، ٢)

أقام أبو البشر في بيته شرق البستان الذي طُرِدَ منه. كان يعمل في الأرض وكانت زوجته تحاول أن تخفِّف عنه عبء الحياة. فكانت ابتسامتها ولمسة يدها وخدمتها تملأ البيت بالحياة وبالرجاء. وتفانت في حب زوجها بل أشاعت المحبة في كل جوانب البيت حتى لنكاد نصدِّق ما قيل عنها على لسان بعض الكُتَّاب المتقدمين من أنَّها قالت: «لقد تسببت في إخراجك من بستان عدن. ولكني سأعوّضك عنه بستان البيت السعيد»! وكادت تنجح في ذلك!

وولدت لزوجها ابنا هو قايين!

ثم عادت فولدت ابنا آخر هو هابيل!

كانت تظن يوم أن ولدت ابنها الأول أنَّه البطل الذي سيعود بها إلى البستان ولذلك دعت اسمه قايين قائلة: «إنِّي قد اقتنيتُ رجلاً من عند الرب. أو كما يقول المترجمون: إنِّي قد اقتنيت رجلاً هو الرب - فلما لم تعُد إلى البستان وجاء ابنها الثاني دعت اسمه هابيل أي بُطْل أو كذب أو رجاء بلا أساس.

وكبر الولدان

كبرا في كنف والدين أبصرا أسعد الأيام وأشقاها. وذاقا أحلى ما في الحياة وأمرّها!

كبرا معاً، ولكنهما كانا يختلفان في كل شيء!!

فإذا صدقت التقاليد فقد كان قايين فارع الطول، ممتلىء الجسم، وسيم الوجه برَّاق العينين، وبالجملة فقد كان آية في الجمال والفتنة!

أما هابيل فكان على نقيض أخيه في ذلك!

على أنَّهما اختلفا أيضاً في اتجاه عملهما، أما قايين فأخذ يزرع ويبدو أنَّه نجح كثيراً في إخراج ثمر الأرض. وأما هابيل فاكتفى أن يرعى أغنامه في المراعي القريبة. كان عمل قايين يتطلب كثيراً من الفهم والتقدير والنشاط والمثابرة والانتظار، بخلاف عمل هابيل الذي كان يتطلب الجلوس بصمت أمام الطبيعة الصامتة، والتأمل فيها وفي سيِّدها!

كذلك اختلف الأخَّان في خُلقهما فقد كان قايين معجباً بنفسه فخوراً بجماله معتزاً بمقدرته وصناعته، متشامخاً متكبِّراً. أما هابيل فكان رضي النفس، مسلِّم الإيمان، وديعاً متواضعاً، مطيعاً لوالديه ولربِّه!

وكان اختلافهما الأكبر في أن الأول رفض أن يستقر الله على عرش قلبه، وكيف يسمح بذلك وقد أجلس على ذلك العرش صنمه المحبوب «أنا» ؟ كان إلٰه قايين هو قايين نفسه. كان ربُّه الأعلى هو شخصه. وعن ذلك العرش خرجت كل الرذائل الإنسانية. أما هابيل فقد أجلس الله على عرش قلبه، وجلس هو عند موطىء قدميه. وسارت حياة هابيل على مقتضى إرادة ذلك العرش السامي الجيد فكانت حياة مكلَّلة بالنور والبهاء، متوجة

بالإشراق والضياء، زانتها الفضائل والكمالات وصاحبتها السيرة الحسنة وصالح الأعمال!!

ذانك هما الأخَّان قايين وهابيل أو على الأصح هابيل وقابين!!

هابيل الصالح!

وقايين الشرير!

٦
الهارب

«تَائِهًا وَهَارِبًا تَكُونُ فِي ٱلْأَرْضِ» (تكوين ٤ : ١٢)

قايين وهابيل شابان في بيت أبيهما. أو لعلَّ كلًّا منهما أقام في بيته الخاص على قول الأحاديث اليهودية. وقد أعَّدا العُدَّة للزواج!

ولا بد أن أباهما ذكر لهما أمر خطيته وطرده وزوجه من الجنة. وروى لهما قصة الكفَّارة وما يلزمها من صلاة ومن ذبيحة، والشكر وما يرافقه من تسبيح ومن تقدمة!

وأسرع هابيل إلى أغنامه فاختار أكبرها وأسمنها وتقدَّم إلى الله متواضعاً متذلِّلاً. أما قايين فلعلَّه رأى عدم لزوم ذبيحة من الغنم. إنَّه يود أن يتقدَّم إلى إلٰهه، أو على الأصح إلى إلٰه أبيه مختالاً فخوراً فهو يقدِّم له من ثمار أرضه تقدمة وقرباناً!!

قدَّم هابيل ذبيحة رأى فيها بالإيمان ذلك الدم الذي امتد خيطاً طويلاً اخترق الأجيال حتى سكب دم حمل الله على الصليب!!

أما قايين فقدَّم تقدمة لا مكان فيها للدم ولا الكفَّارة ولا للخطية!

قدَّم هابيل ذبيحته متذلِّلا لله. أما قابين فتقدم متكبراً. إنَّه يبغي الإعلان عما يستطيع أن يخرجه من الأرض بقوَّة يده وحُسْن تفكيره. إنَّه أقوى من أخيه بل أقوى ممن هم أقوى من أخيه!

وتقبَّل الله ذبيحة هابيل!

ورفض الله تقدِمة قايين!

ولسنا نعلم مظاهر ذلك القبول أو الرفض!

قيل إنَّ ناراً نزلت من السماء وأكلت ذبيحة هابيل. لكن تقدمة قايين ظلَّت كما هي!

وقيل إنَّ آدم وكان كاهن الأسرة أعلن لهما ذلك القبول وذلك الرفض وكان يتكلَّم إليهما باسم الرب!

وقيل إنَّ الله نفسه أعلن لهما بفمه إنَّه قَبِلَ ذبيحة هذا ورفض تقدمة ذاك!

ونحن لا نعلم بعد كل شيء، كيف ظهر القبول وكيف أُعْلِن الرفض. لكن ماذا تهمّنا الكيفية. إنَّ ما يهمّنا هو الحقيقة نفسها!

سرّ هابيل ولا شك. أمَّا قايين فكان حزنه طاغياً. لقد مسَّ ذلك الرفض كبرياءه. لم يكن يهمَّه الله ولا رضاء الله إلَّا على قدر ما يتصل ذلك بشخصه! هل يقبل الله أغنام أخيه الراعي ويرفض أثماره وغلَّاته؟ هل يقبل الله هابيل ويرفض قايين!!؟!

كان جرح كبريائه كبيراً!

وقبع قايين في بيته ينوح على كبريائه الجريحة، وقد تدلَّت رأسه على صدره، واكتسى وجهه بثوب من غم، وغطته سحابة من ظلام!!

فقال الرَّب لقايين: لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك؟ لا ترفع عينك إلى فوق أو إلى يمين ويسار. إنَّ الأمر فيك أنت. تستطيع أن ترفع وجهك وتعيد الإشراق إلى نفسك، عُد إلى ربك بالطاعة

وبالتوبة وقدِّم ذبيحتك كما قدَّم أخوك يغفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر!

ولكن قايين تمادى في كبريائه فرفض عرض إلٰهه؟

وغلى صدره حسداً وحقداً ضد أخيه المسكين. كيف يطيق أن يراه؟ كلَّما ابتسم هابيل مزَّقت صدر قايين سكين الغيرة. وكلَّما بدا هابيل راضياً اشتعلت في صدر قايين نار الحسد. كلّا. إنَّه لا يطيق أن يراه. يجب أن يذهب من طريقه. يجب أن يذهب إلى غير رجعة!

يا للعار! أخان لا تسعهما الدنيا!

لا تسلني وما هو ذنب هابيل حتى يفكر قايين في الانتقام منه، ولا تقل مندهشاً، وما هي جريرته؟ إنَّ قايين يفكِّر، وهو يصوِّب سهام غضبه إلى هابيل، في تصويبها نحو إلٰه هابيل! إنَّ سهمه لا يستطيع أن يصل إلى صدر الله، فهو يصوِّبه إلى صدر حبيب الله!

ووسوس الشيطان في صدر قايين أن اقتل أخاك!

لم يكفِ ذلك العدو ما عمله حتى الآن مما أدَّى إلى إخراج الأسرة من الجنة، وإلى لعنة الأرض، وإلى تعب العمل، وتعب الحمل والولادة. لم يكفه ما عمله مع الوالدين بل يجب أن يلاحق الأولاد أيضاً!

اقتل أخاك!

لا شك أنَّ الكلمة لم تكن سهلة في أول الأمر. ولكنها على كل حال وقعت على تربة مستعدة. وظلَّت الفكرة تنمو وتنمو حتى تحولَّت تدبيراً.

ولكن عقبات وقفت أمامه.

فإنَّ أخاه يسيء الظن به مذ رفض الله ذبيحته وسقط وجهه!

ولن يكون من السهل أن يجرَّه إلى حيث ينوي أن يقتله!

وأبوه وأمه سيقفان، ولا شك، في جانب «هابيل» يدافعان عنه!!

وهناك الآلة التي تصلح للقتل، أين هي وماذا يعمل بالجثة... أسئلة ذات شأن وقفت أمام قايين. فجلس بهدوء ورتَّب كل شيء بحيث استراح تماماً إلى ما رتَّب. فأصلح أولاً ما بينه وبين أخيه. «وكلَّم قابين هابيل أخاه» ومعنى ذلك أنَّه بسط عضلات وجهه وابتسم له وتلطَّف في الحديث معه بحيث أنس أخوه له واطمأن إلى صحبته ووثق به. آه ما أكثر الوجوه التي تلبس بُرقُع الخداع وترسم ابتسامة الرياء أو تسكب دموع التماسيح لغرض الإيقاع بالأخ المسكين!

ثم أخذ قايين أخاه إلى الحقل... بعيداً جداً عن منطقة «أذني» والديه. لن يوجد من يدافع عنه أو يسمع صراخه. وهناك في ذلك المكان البعيد انفرد به.

وآلة القتل... ومع أنَّ الكتاب لا يحدِّثنا عنها، ولكن سياق القصة يرينا أنَّ قايين كان رجُل اختراع. بل أنَّ الاختراع كان في دمه. كان أبناؤه أول من اخترع آلات الحديد والنحاس. وأنا لا أستبعد أنَّ قايين بعقله الكبير الجبار اخترع «آلة قتل» ولا أدعوها آلة قتال. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل «انتصاره» على أخيه هيِّناً. واعتقد أنَّ قايين هنَّأ نفسه على عبقريته، ولو أنَّه وجد من يفتخر أمامه لافتخر بآلة الفتك الحديثة التي استطاع بها أن ينهي من العالم «دولة» أخيه!

وقد أسعفت الأرض قايين بشرب دم الجريمة. ثم رتَّب أن يدفن الجثة... وهكذا كان. وكان حسابه دقيقاً. لقد أزاح أخاه من الطريق ولن يستطيع أحدُ أن يدينه. إنَّه يستطيع أن يبسط يده بدون خوف.. من ذا يدينه؟

لكن «حسبة» قايين كانت خاطئة.. خاطئة حتى من قبل أن يكتشفه العالم الخارجي! ما هذا الذُّعر الذي يحس به.. ما هذا الاضطراب الذي يساوره؟ لماذا يسير في الطريق زائغ العينين.. ولكنه يتجلَّد ويتشجَّع. يسمع صوتاً من أعماق نفسه «يا قاتل». ولكنه يحاول أن يخنق ذلك الصوت في مهده ويعود إلى بيته ويتقدَّم إلى المذبح بذبيحته فيسمع الله يكلِّمه: «أين هابيل أخوك؟»

- أحارسُ أنا لأخي؟

- ماذا فعلت. صوت دم أخيك صارخٌ إليَّ من الأرض. فالآن ملعونٌ أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الارض لا تعود تعطيك قوَّتها!

تائهاً وهارباً تكون في الأرض!

وقضى قايين حياته يتنقَّل من مكان إلى مكان تائهاً وهارباً في الأرض!

٧
الرجل الذي سار مع الله

«بِٱلْإِيمَانِ نُقِلَ أَخْنُوخُ لِكَيْ لَا يَرَى ٱلْمَوْتَ، وَلَمْ يُوجَدْ لِأَنَّ ٱللهَ نَقَلَهُ. إِذْ قَبْلَ نَقْلِهِ شُهِدَ لَهُ بِأَنَّهُ قَدْ أَرْضَى ٱللهَ»
(عبرانيين ١١ : ٥)

اسمه أخنوخ

وهو ابن يارد

وكل ما ميَّزه التاريخ المقدَّس به أنَّه سار مع الله ولم يوجد لانَّ الله أخذه!

فإنَّه يبدو في أول أمره رجلاً عادياً، وُلِدَ كما يولد سائر الناس. ونما كما ينمو غيره من الناس. وتزوج غالباً بعد أن وصل الستين أو زاد عنها. ولما بلغ الخامسة والستين وُلِدَ له ابنه متوشالح الذي عاش أكثر من أي رجل آخر في كل التاريخ. ووُلِدَ له أيضاً بنون وبنات في خلال ثلاث مئة سنة أخرى!

لم يختلف أخنوخ عن أي رجل آخر!

لم يجرِ آيةً ولم يعمل معجزةً. ولم يشتهر بخطابةٍ أو بيانٍ. ويبدو أنَّ ثروته كانت نظير غيره. إنَّه واحد من أولٰئك الألوف الذين سبقوه وعاصروه!

على أنَّه أتى عملاً سجل له، بدا فيه أنَّه يختلف عن غيره. ذلك أنَّه سار مع الله وإنَّه لم يوجد لأنَّ الله أخذه!

ونحن نتساءل عن معنى القول «إنَّه سار مع الله». ولماذا ذُكِر

له هذا تمييزاً عن غيره مع إنَّ «شيثاً» ومن تبعوه ساروا مع الله. ولقد اُبتدأ منذ أنوش بن شيث يدعى بٱسم الله. وكان أبناء شيث يُدعون أبناء الله!

ونظن نحن أنَّ أخنوخ عاش حياة شركة كاملة مع الله. كان مع الله في سرِّه وفي جهره. كان يستيقظ صباحاً ليواجهه. ويسير طول النهار معه. وعندما ينام يسلم نفسه لعنايته. وكان ينفق الساعات الطويلة في تأملات روحية مستمرة!

وقد ابتدأت تلك التأملات في أول الأمر محدودة في وقتها إذ كانت عليه التزامات لعمله ولزوجته وأولاده وبناته، ولكن تلك الساعات جعلت تتزايد وتتزايد حتى احتلَّت كل وقته. وجاء الوقت الذي كان أخنوخ يقضي فيه كل ساعات نهاره وليله مع الله وإذ ذاك نقله الله إليه ليبقى معه باستمرار!

وقيل في التلمود «إنَّ أخنوخ عاش متعبداً لله في دير في البرية بعيداً عن الناس مدة تسعين سنة. وفي ذلك الوقت جاءه ملاك من السماء ودعاه: «أخنوخ أخنوخ» وقال أخنوخ: «هأنذا يارب؟» وقال الملاك: «قم وتمشَّ بين الناس وعلِّمهم الطريق وارشدهم سواء السبيل.» وأطاع أخنوخ أمر ربه فجال بين الناس وعلَّمهم الطريق الحق وسبيل الصدق ونادى أتباعه: «أيُّها الناس كل من أراد أن يعرف طريق الله فليذهب إلى أخنوخ». وملَكَ أخنوخ على الجنس البشري وأطاعه الناس. وقد خدموا الله وعاشوا في سلام طول مدة ملكه عليهم. وقد ظل ملكه ثلاث مئة وخمسين سنة وكانت سِنِي عدل وحق وسلام ووُلِدَ له ابن هو متوشالح ووُلِد لمتوشالح ابن هو لامك! ومات آدم بعد أن بلغ من العمر تسع

مئة وثلاثين سنة حين كان عمر لامك خمس وستين سنة. وقد دُفِنَ في احتفال كبير دفنه شيث وأخنوخ ومتوشالح ووضع جثمانه في مغارة تقول بعض المصادر إنَّها مغارة الكفيلة - وكانت حفلة دفن آدم أولى حفلات الدفن!

وكان موت آدم في السنة المئتين والثلاثة والخمسين لملك أخنوخ. وقد أحسَّ وقتذاك باشتياق إلى حياة التنسُّك والعبادة، فاعتزل الناس، ولكنه لم يعتزلهم دفعة بل تدريجياً. كان في أول الأمر يمكث مع الناس ثلاثة أيام ثم يحتجب عنهم أربعة وبعد وقت صارت الأربعة خمسة ثم ستة. ثم جعل يحتجب شهراً ويظهر لهم يوماً! ثم شهرين إلى أن بلغت مدة احتجابه سنة ويظهر للقوم يوماً - وعاش مع الله حياة مقدَّسة وكان الناس يخشونه ويضطربون في حضرته ولكنهم كانوا يحبونه ويرغبون سماعه. وكلما ظهر لهم انحنوا أمامه وصاحوا ليحيا الملك!

وفي ذلك الوقت دعاه الملاك أن ٱصعد إلى السماء واحكم هناك. وقال أخنوح للناس: «لقد دُعِيت إلى السماء ولو أنّي لا أعلم متى يكون ذلك. ولذلك سأمكث معكم أعلِّمكم وارشدكم إلى أن انطلق». ومكث بينهم و كان وجوده بركة لهم وعمَّ السلام والاتحاد والمحبة!

وفي أحد الأيام اعتلى أخنوخ حصانه وانطلق بعيداً عن الناس ولكن بعضهم تبعوه ورافقوه طول النهار، فالتفت إليهم وطلب منهم أن يعودوا فعاد بعضهم وبقي البعض وهؤلاء رافقوه اليوم الثاني. وطلب منهم في اليوم الثاني أن يعودوا فعاد البعض وبقى البعض وهكذا في اليوم الثالث والرابع إلى السادس وهو يحذرهم

مغبَّة عنادهم. ولكن بعد اليوم السادس كفَّ عن الكلام معهم.

وفي اليوم السابع صعد إلى السماء في العاصفة في مركبة من نار تجرُّها خيل من نار!

وانقطعت أخباره والذين معه فأرسل القوم من يبحثون عنهم ووصلوا إلى النقطة التي تركوهم فيها ووجدوا جليداً وثلوجاً فحفروا وحفروا وأخيراً وُجِدَت جُثث القوم أمَّا أخنوخ فلا يوجد لأنَّ الله أخذه!»

وسواء صحَّت قصة «التلمود» أو كانت من وحي الخيال فإنَّ فيها كثيراً من الحقائق التي لا تنكر! فقد كان أخنوخ معلِّماً لقومه ونبيّاً. تنبَّأ للناس عن مجيء الله «في ربوات قديسيه ليصنع دينونة على الجميع ويعاقب جميع فجَّارهم على جميع أعمال فجورهم التي فجروا بها وعلى جميع الكلمات الصعبة التي تكلَّم بها عليه خطاة فجاراً»!!

وقد صعد أخنوخ إلى السماء، ما في هذا شك، صعد بكيفية أخرى هي الكيفية التي سيصعد بها الأحياء يوم يُختَطفون إلى السماء في المجيء الثاني!

ولعلَّ قصة صعود أخنوخ أبلغ إعلان لبني البشر عن خلود النفس، فلقد مات آدم ومات شيث وأنوش وقينان وغيرهم. وكان الموت نهاية الحياة. وربما وَلَّدَ موت هؤلاء الشعور بالفناء. فلما صعد أخنوخ إلى السماء فكَّر الناس في الخلود وآمنوا بالبقاء!

٨

قوس قزح

«وَضَعْتُ قَوْسِي فِي ٱلسَّحَابِ فَتَكُونُ عَلَامَةَ مِيثَاقٍ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْأَرْضِ» (تكوين ٩ : ١٣)

ها نحن نرى سلسلتين من الأنساب. فقايين بدأ سلسلة كبيرة امتدت واتَّسمت حتى ضمَّت الألوف!

وشيث بدأ سلسلة أخرى لم تكن أقل من السلسلة الأخرى!

وهناك البنون والبنات الذين ولدهم آدم وشيث وأنوش وقينان.. وهكذا ويُظنَّ أن هؤلاء انضموا إلى رؤوس العائلات!

وسارت السلسلتان في خطين متوازيين. كان أحدهما متَّصلاً بالله حتى لقد أُطلق عليهم أبناء الله أما الثاني فقد قطع صلته بالله وقد أُطلق عليهم أبناء الناس!!

كان إذن نوعان من الناس، أبناء الله وأبناء الناس. وكان كل نوع يسير منفرداً في طريقه لا تربطه بالنوع الثاني علاقة اقتصادية أو اجتماعية!

ورأى أبناء الله بنات الناس أنَّهن حُسَّان المنظر. أجمل من بنات الله. فاختاروا لهم نساء منهن من كل ما اختاروا. ونتج عن ذلك الزواج جيل من الناس كان خليطاً من شرِّ بنات الناس وشهوات أبناء الله. وامتزج النوعان فضاع الخط الفاصل بين أبناء الله وبنات الناس وأصبح الكل من أبناء الناس!

وامتلأت الأرض بالشرِّ!

ورأى الله وحزن!

وكيف لا يحزن وهو يرى الإنسان الذي صنعته يداه، والذي يحوي في شخصه نسمة حياة من ذات الله، كيف لا يحزن وهو يراه يضلُّ الطريق ويفسد؟

كيف لا يتألَّم وهو يراه يلوِّث بأوزار الخطية كل مقدَّس في ذاته، فتمتلىء عيناه بالشهوات وفمه باللَّعنات، ويداه بالأذى، وكل جسده بجراثيم الأثم..

كيف لا يتألَّم؟

لم يكن ذلك الإنسان هو الإنسان الذي خلقه ورآه صورة منه!!

وأرسل الله إلى الناس من يدعوهم إلى الرجوع إليه. إنَّ قلبه المملوء رحمة لا يتركه يستريح دون أن يحاول معهم مرة وأخرى ومرَّات، ولكنهم تقسَّوا ولم يرعووا. وكانت عودتهم مستحيلة لأن الخطية ملأت كل جزء من حياتهم!

«وَرَأَى ٱلرَّبُّ أَنَّ شَرَّ ٱلْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي ٱلْأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرِ أَفْكَارِ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شِرِّيرٌ كُلَّ يَوْمٍ. فَحَزِنَ ٱلرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ ٱلْإِنْسَانَ فِي ٱلْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. فَقَالَ ٱلرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ ٱلْأَرْضِ ٱلْإِنْسَانَ ٱلَّذِي خَلَقْتُهُ، ٱلْإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمَ وَدَبَّابَاتٍ وَطُيُورِ ٱلسَّمَاءِ، لِأَنِّي حَزِنْتُ أَنِّي عَمِلْتُهُمْ».

هذا هو إلٰهنا!

إنَّه لا يغضب على شر الإنسان!

ولكنه يحزن!

ولا يقصد أن يلاشي الإنسان انتقاماً ولكنه يلاشيه، في الحق ، رحمة!! إذ لا يليق أن يبقى صورة ملوثة. إنَّ محو الإنسان عن وجه الأرض محاولة لإصلاح الإنسانية!!

وكان في الأرض رجلٌ واحدٌ لم ينجِّس حياته في الآثام هو «نوح». وتذكر التقاليد اليهودية أنَّ الله ناداه وقال:

«يا نوح! خُذْ لك زوجة، ولِدْ أولاداً لأنِّي رأيتك باراً قدامي. فإنِّي سأهلك جميع الناس إلَّا أنت وزوجتك وأولادك!! وأطاع نوح وصية الله وتزوَّج من نعمة ابنة أخنوخ وكان عمره لما تزوج أربعمائة وثمانية وتسعين سنة وولدت له نعمة ابناً دعته «يافث» قائلة: «إنَّ الله قد أوسع لنا في الأرض». ثم عادت فولدت «حام» وولدت ابناً ثالثاً ودعته «سام» قائلة: «إنَّ الله قد أعطاه اسماً عظيماً بين الناس. وكان عُمْر نوح لما ولد ساماً خمس مئة وسنتين.

ونستطيع أن نقول بيقين إنَّ نوحاً سعى جهده أن يصلح من أمر القوم ولكنهم لم يسمعوا له. «**وَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ أَمَامَ ٱللهِ، وَٱمْتَلَأَتِ ٱلْأَرْضُ ظُلْمًا. وَرَأَى ٱللهُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى ٱلْأَرْضِ**».

وقال الله لنوح:

«**فَقَالَ ٱللهُ لِنُوحٍ: «نِهَايَةُ كُلِّ بَشَرٍ قَدْ أَتَتْ أَمَامِي، لِأَنَّ ٱلْأَرْضَ ٱمْتَلَأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهَا أَنَا مُهْلِكُهُمْ مَعَ ٱلْأَرْضِ. اِصْنَعْ لِنَفْسِكَ فُلْكًا**»

ووصف المولى لنوح فُلْك النجاة هذا، وصف نوع خشبه ونوع صناعته ومنافذه وأعلن أنَّ ذلك الفُلْك سيكون أداة نجاته من

طوفان الماء الذي سيرسله لإهلاك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت!!

وقال الله إنَّه يقيم عهده مع نوح لينجِّيه وزوجته وأولاده وزوجاتهم مع كل الحيوانات والطيور التي تدخل معه إلى الفلك!

وبدأ نوح يصنع الفُلك كما أمَرَهُ الرب!

وظلَّ يعمل فيه أياماً كثيرة!

كان يبني فُلْكاً على اليبس بعيداً عن الماء!

ولا بد أنَّ الناس كانوا يقفون ليسألوا، ولا بد أنَّ نوحاً كان يعلن لهم أنَّ الله سيهلك العالم بالطوفان! كان نوح كارزا وقد ظل يكرز سنين طويلة! وكان فوق كرازته يصلِّي من أجل الناس. ولكن الناس استهزأوا برسالته، وانغمسوا في شرورهم، وازداد ظلمهم وفسادهم!!

واقترب يوم الدينونة!

وأَمَرَ الله نوحاً أن يدخل إلى الفلك، فدخل هو ومن له وماله، وأغلق الرب عليه. وظلُّوا سبعة أيام داخل الفُلْك قبل أن ينزل المطر، وكان ذلك شهادة!!

وأقبل اليوم المعين يحمل للأرض نهاية الخليقة. في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء. وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة!!

ولا يمكن لقلمٍ أن يصوِّر ما حاق بالبشر من رعب، فلقد سارعوا إلى الأقبيةً والغرف المسقوفة ولكن هذه انهارت أمام فيضان الماء. وركضوا يطلبون الأماكن العالية ولكن الماء ركض

خلفهم وكانوا يسقطون أمامه وقد صرعهم جميعاً. حتى الذين لجأوا إلى قمم الجبال لم تستطع الجبال أن تحميهم لأن المياه تعاظمت كثيراً جداً على الأرض. فتغطَّت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. فمات كل ذي جسدٍ كان يدب على الأرض... الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحَّافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات!

وتبقى نوح والذين معه في الفُلْك فقط!

❊ ❊ ❊

ثم ذكر الله نوحاً.

وأمر، فهدأت المياه وانسدَّت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً!

ويلذُّ لنا أن نراقب الفُلْك وهو يصعد على سطح الماء ويسير في اتجاه تياره. ويرتفع إلى أعلى من قمم الجبال.. ثم تنخفض المياه فينخفض الفُلْك ويستقر أخيراً على جبال أراراط. والمياه تتناقص من حوله!

ويلذُّ لنا أن نراقب نوحاً وهو يحاول أن يكتشف حال الأرض. فيرسل الغراب. والغراب يسير فلا يجد إلَّا ماء ولكنه يجد أيضاً جثثاً كثيرة ينشغل بنهشها. ومع أنَّه لا يجد مستقراً لرجله فإنَّه لا يفكِّر في العودة إلى الفُلْك!

وتنقضي سبعة أيام دون أن يعود الغراب. فيفتح نوح طاقة الفُلْك ويرسل الحمامة والحمامة تطير من مكان إلى مكان وهي لا

تبصر شجراً أو أرضاً ظاهرة ولما لا تجد مستقراً لرجلها تعود في نهاية اليوم إلى نوح إلى الفُلْك.

وتمرُّ سبعة أيام أخرى فيعود نوح ويرسل الحمامة، وتسير الحمامة من مكان إلى مكان. وهي لا تبصر أرضاً جافة ولكنها تبصر أشجار فتحمل في منقارها ورقة من غصون الزيتون وتعود بها إلى نوح.

كم ابتهج نوح وهو يقرأ تلك الرسالة الخضراء وكم سُرَّ!! لقد اقترب وقت الخروج من الفُلْك !

وبعد أسبوع آخر أرسل نوح الحمامة فذهبت ولم تعد.. وبعد أسبوع آخر أمر الله نوحاً أن يخرج من الفُلْك!

وإنَّنا لنتخيل ذلك الخروج!

خرج نوح وزوجته وأولاده ونساؤهم؟

وحالما لمست أقدامهم الأرض انكفأ نوح على وجهه وخرَّ ساجداً وقدَّم لله شكراً فاض به قلبه!

ثم بنى مذبحاً!

وقدَّم عليه قرابين شكر!

وتنسَّم الرب رائحة الرضاء!

وَقَالَ ٱلرَّبُّ فِي قَلْبِهِ: «لَا أَعُودُ أَلْعَنُ ٱلْأَرْضَ أَيْضًا مِنْ أَجْلِ ٱلْإِنْسَانِ، لِأَنَّ تَصَوُّرَ قَلْبِ ٱلْإِنْسَانِ شِرِّيرٌ مُنْذُ حَدَاثَتِهِ!

وَلَا أَعُودُ أَيْضًا أُمِيتُ كُلَّ حَيٍّ كَمَا فَعَلْتُ!

وقال الله لنوح وبنيه:

«وَهَا أَنَا مُقِيمٌ مِيثَاقِي مَعَكُمْ وَمَعَ نَسْلِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ.. أُقِيمُ

مِيثَاقِي مَعَكُمْ فَلَا يَنْقَرِضُ كُلُّ ذِي جَسَدٍ أَيْضًا بِمِيَاهِ ٱلطُّوفَانِ. وَلَا يَكُونُ أَيْضًا طُوفَانٌ لِيُخْرِبَ ٱلْأَرْضَ.»

وَقَالَ ٱللهُ: «هَذِهِ عَلَامَةُ ٱلْمِيثَاقِ ٱلَّذِي أَنَا وَاضِعُهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ..

وَضَعْتُ قَوْسِي فِي ٱلسَّحَابِ فَتَكُونُ عَلَامَةَ مِيثَاقٍ بَيْنِي وَبَيْنَ ٱلْأَرْضِ. فَيَكُونُ مَتَى أَنْشُرْ سَحَابًا عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَتَظْهَرِ ٱلْقَوْسُ فِي ٱلسَّحَابِ، أَنِّي أَذْكُرُ مِيثَاقِي ٱلَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي كُلِّ جَسَدٍ. فَلَا تَكُونُ أَيْضًا ٱلْمِيَاهُ طُوفَانًا لِتُهْلِكَ كُلَّ ذِي جَسَدٍ.

شكراً لله!!

٩
بابل

«لِذٰلِكَ دُعِيَ ٱسْمُهَا «بَابِلَ» لِأَنَّ ٱلرَّبَّ هُنَاكَ بَلْبَلَ لِسَانَ كُلِّ ٱلْأَرْضِ. وَمِنْ هُنَاكَ بَدَّدَهُمُ ٱلرَّبُّ عَلَى وَجْهِ كُلِّ ٱلْأَرْضِ.» (تكوين ١١ : ٩)

هذه هي المدينة الثانية التي تقابلها في سياحتنا في الكتاب المقدَّس. وقد يُخيَّل لنا أنَّنا نستطيع أن نريح أجسامنا المكدودة في ظلِّها. وسنجد ولا شك في المدينة ما لا نجده في الخيام من وسائل الراحة!!

ولكننا إذ ندخلها نراها خراباً يباباً!!

أبنية مهجورة!

وبرج ناقص!

وإذ نقف في حيرة نسأل ما عسى أن يكون قد أصابها، تعود بنا الذاكرة إلى الأمس القريب ويمتد خيط الفكر إلى الأمس البعيد، وترتسم حوادث الأمسين أمامنا كشريط سنيمائي!

هوذا آدم يخرج من الجنة مطروداً هو وزوجته وهما يقيمان لهما منزلاً من فروع الأشجار ويعيشان فيه. ونظنُّ أنَّ أكواخاً أخرى أُقِيمَت بجانب الكوخ الأول. ولا نستبعد أن تحسيناً كبيراً ظهر فيها. إلَّا أنَّها لم تخرج عن كونها أكواخ!

وبغتة نبصر قايين ينفصل عن أبيه ويبني مدينة دعاها «حنوك»

على اسم ابنه. قِيل إنَّه بعد أن قتل أخاه كان يرى في السماء صورة عيني هابيل تنظران إليه وكأنَّهما تقولان له يا قاتل. وكان يهرب من تينك العينين من مكان إلى مكان.

وأخيراً فكَّر أن يبني مدينة فيها بيوت من حجارة لكي يحجب عن عينيه رؤية عيني أخيه اللتين كان يراهما في السماء..

وقيل إنَّه وجد «العينين» داخل المدينة. فتركها وهرب.. وظلَّ يهرب إلى أن مات هارباً!

ولكن مدينته ظلَّت قائمة!؟

وكانت مدينة شريرة سكنها «أبناء الناس» وهلكت في الطوفان.

وها نحن نبصر نوحاً وأولاده يخرجون من الفلك ويتكاثرون. وهوذا عددٌ كبيرٌ منهم ينطلق من مكانه نحو الشرق. و يسكنون في أرض شنعار!

وكان الإقليم كثير الخصوبة يصلح للإقامة الدائمة!

وتحدَّث بعضهم إلى بعض في شأن بناء مدينة!

ونحن لا نعلم باليقين لماذا فكَّروا في ذلك!

ربما تعبوا من كثرة التنقُّل فهم يودون الاستقرار!

وربما كثرت غلَّاتهم وازدادت ثرواتهم ففكَّروا في أن يمتِّعوا أنفسهم بحياة أرقى من حياة الأكواخ أو الخيام!

وربما كان لهم من إخوتهم ومن أبناء عمومتهم خصوم فهم يرغبون أن يحصِّنوا أنفسهم في مدينة ذات أسوار وأبراج - وتذكر التقاليد اليهودية أنَّ زعيمهم إذ ذاك كان نمرود الذي عُرِف فيما بعد باسم «الملك نمرود». وأنَّ هذا الملك أراد أن يبسط سلطانه على

الأرض كلها ففكَّر في بناء المدينة والبرج!!

قد يكون هذا أو ذاك سبب تفكيرهم في بناء المدينة. وقد لا يكون. ولكننا نظنُّ أنَّ هناك تأييداً لبعض هذه الأفكار في الكلمات التي سجَّلها الوحي عن القوم:

«هَلُمَّ نَبْنِ لِأَنْفُسِنَا مَدِينَةً وَبُرْجًا رَأْسُهُ بِٱلسَّمَاءِ. وَنَصْنَعُ لِأَنْفُسِنَا ٱسْماً لِئَلَّا نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ ٱلْأَرْضِ»

ما هو معني «نصنع لأنفسنا اسماً»؟

وما هو معني «لِئَلَّا نَتَبَدَّدَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ ٱلْأَرْضِ»؟

ويبدو أنَّ القوم كانوا مفكرين فقد استطاعوا أن يخترعوا مواداً جديداً للبناء. هم أول من صنع «اللَّبِن» وشووه بالنار فكان لهم «الطوب الأحمر». وهم أول من استعمل «الحمرة» للمونة بدل الطين!

إنَّهم قوم يستحقُّون الإعجاب!

وها نحن نراهم يبدأون في بناء المدينة وينجحون. وكان يمكن أن يتمِّموا قصدهم فتكون لهم مدينة ويكون لهم برج يمسُّ السماء. لولا أنَّ الله لم يكن راضياً على عملهم. ونحن نرى ذلك واضحاً في الكلمات المقدَّسة التي دوَّنها موسى عن ذلك. قال: «فَنَزَلَ ٱلرَّبُّ لِيَنْظُرَ ٱلْمَدِينَةَ وَٱلْبُرْجَ ٱللَّذَيْنِ كَانَ بَنُو آدَمَ يَبْنُونَهُمَا. وَقَالَ ٱلرَّبُّ: «هُوَذَا شَعْبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ لِجَمِيعِهِمْ، وَهٰذَا ٱبْتِدَاؤُهُمْ بِٱلْعَمَلِ. وَٱلْآنَ لَا يُمْتَنَعُ عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَنْوُونَ أَنْ يَعْمَلُوهُ. هَلُمَّ نَنْزِلْ وَنُبَلْبِلْ هُنَاكَ لِسَانَهُمْ حَتَّى لَا يَسْمَعَ بَعْضُهُمْ لِسَانَ بَعْضٍ». فَبَدَّدَهُمُ ٱلرَّبُّ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَجْهِ كُلِّ ٱلْأَرْضِ»!

وإذ نقرأ هذه الكلمات نسأل عن سبب عدم رضاء الله على بناء المدينة والبرج!!

إنَّنا لا يمكن أن نقبل ما يزعمه الوثنيون من أنَّ «الله» خاف من الناس وخشي أنَّهم سيفوزون عليه إذا ما بنوا البرج الذي يمسُّ السماء. ومع ذلك فهذا ما يقوله الوثنيون ويؤمنون به. إنَّهم يعتقدون أنَّ الآلهة تكره الناس وتخشاهم. ولذلك كان كبير الآلهة يهدم بالليل ما بناه القوم بالنهار!

قد نقبل أنَّ الله رأى في عمل القوم لوناً من الكبرياء ولوناً من التحدِّي له. وأنَّه قاوم هذه الكبرياء وهذا التحدِّي فإنَّ الله يقاوم المستكبرين أما المتواضعون فيعطيهم نعمة. وقد رأينا ذلك واضحاً في ضربِهِ لفرعون.. بل قد رأيناهُ في المدينة التي بُنِيَت على أنقاض هذه المدينة. فإنَّ نبوخذ نصَّر ملك بابل الجديدة وقف في أحد الأيام ورفع يده نحو السماء في جبروت وكبرياء واعتزَّ ببناء مدينة لبيت الملك بقوة اقتداره وجلال مجده! فأسقطه الله سقوطاً مهيناً!

كانت الكبرياء إذن طابع هذه المدينة الجديدة فكان حقَّاً أن يكشف الله القوم حقيقة ضعفهم. وهكذا كان. أراد القوم أن «يصنعوا لأنفسهم اسماً» ولم يعلموا أنَّهم تراب. ولذلك علَّمهم المولى هذا الدرس فتعلَّموه وإن يكن الثمن كبيراً!

وتذكر بعض التقاليد اليهودية أن نمرود الجبار الذي قيل إنَّه كان ملك القوم أراد أن يتحدَّى الله ببنائه مدينة تقوى على الطوفان. وإنَّ البرج الذي بدأهُ كان هيكلاً لبعل. وإنَّ المشروع كان يهدف إلى إقامة عهد وثني مناهض لله. بل قيل إنَّ نمرود قصد أن يكون هو «الله» وقصد أن يعلن أنَّه أقوى من إلٰه الطوفان!!!

ونحن لا نستبعد أن يكون هذا صحيحاً. ألم يرث الناس خطية أبيهم الذي تجرَّب أن يعمل على أن يصير كالله وأن يتعالى إلى مقامه تعالى - ويقول هؤلاء إنَّ مدينة بابل المنْوية كانت بدء الوثنية التي بدأت في الأصل بعبادة الإنسان للإنسان!!

على أنَّ البعض يرى رأياً آخر. إنَّهم يقولون إنَّ الله لم يتدخل في الأمر هذا التدخُّل المباشر الذي تُظهره الكلمات. كان الفكر اليهودي يُرجِع كل شيء إلى الله. ونحن نرى ذلك في أماكن كثيرة في كتب التوراة. جاء في سفر الخروج أنَّ الله أمر اليهود أن يرسلوا جواسيس إلى أرض كنعان. أما في سفر التثنية قد كشف موسى أنَّ إرسال الجواسيس لم يكن أصلاً من الله بل كان من اقتراح الشعب اليهودي نفسه. وفي قصة فرعون جاءت التعبيرات أنَّ الله قسَّى قلب فرعون وغلظ عنقه. وفي إشعياء نقرأ أنَّ الله يعمي عيون القوم ويصمُّ آذانهم ويغلظ رقابهم ويقسِّي قلوبهم لئلَّا يسمعوا فيتوبوا. ولا شكّ أنَّنا لا يمكن أن نقبل هذا التعبير بمعناه الحرفي. لا يمكن أنَّ الله الكبير القلب العظيم الحب يقصد أن يحرم إنساناً من مراحمه. إذن هو تعبير يرمز إلى أنَّه بسبب قسوة قلب الناس وغلاظة رقابهم سمح بذلك!

وعلى هذا القياس يرى الكثيرون أنَّ قصة بناء المدينة والبرج لا يتَّصل أمرها بالله بل بالناس. كان أمر بناء المدينة والبرج وأمر توقف ذلك البناء في صدر الناس.

لقد كانت الكبرياء أساساً للبناء. والكبرياء تحمل سقوطها في جوفها. وبشيء من التدقيق نري هذه الحقيقة. لقد فكَّر الطغاة أن يبنوا. ولا شك أنَّهم سخَّروا البعض في البناء. وهل يمكن للطغيان

أن يعمِّر. حدثت فتنة ولم يمكن وجود «تفاهم» بين الحاكمين والمحكومين. كان الحُكَّام يتكلَّمون بلغة لا يفهمها المحكومون. وحاول المحكومون أن يجعلوا الحُكَّام يفهمون لغتهم فلم يستطيعوا. وهكذا انعدم «التفاهم» ونتج عن ذلك «سوء التفاهم»!!

والذين يقولون بهذا الرأي يقولون إنَّ التعبيرات الشفوية لم تكن أولاً. لقد بدأت اللغة أولاً في القلب وانتقلت إلى الوجه ثم ظهرت في الشفتين. ومن اليسير على من لا يعرفون لسان بعضهم البعض أن يتفاهموا إذا حسنت النِّيَّات فإذا ما ساءت النَّيَّات فإن كل «قواميس» العالم لا يمكن أن تُوجِد هذا التفاهم!!

وهذا الانقسام الكبير الذي نراه في العالم ليس منشأه اختلاف اللغة الشفوية بل اختلاف لغة القلب!

انقسم القوم إذن عند بابل
وتركوا المدينة مهجورة
والبرج ناقصاً
ودُعِيَت المدينة «بابل»
ومن ذلك الوقت صارت بابل عَلَمًا للشرِّ

***

وظلَّت بابل عَلَمًا للشر
وظنَّ الكثيرون أنَّها ستبقى كذلك
ولكن!

ولكن كاتب سفر الرؤيا رأى سقوط المدينة الشريرة وانتهاء عهدها المظلم

وقيام مدينة المحبة والسلام!
مدينة أورشليم الجديدة!!

١٠

أب المؤمنين

«أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ»
(يوحنا ٨: ٥٦)

ألا أحدِّثكم حديث أعظم رجل سجَّلت تاريخه الأسفار المقدَّسة في الأديان الثلاثة الحديثة؟ لقد مات منذ آلاف السنين، ولكنه لا يزال حيًّا يرسل أشعة نوره إلى كل طريق، ويتحدث أجمل الحديث إلى الأجيال القديمة وإلى الجيل الحديث!

إنَّه إبرهيم!

كان اسمه أبرام وغيَّر الله اسمه إلى إبراهيم،

وكان يقيم مع أبيه تارح في أور الكلدانيين على نهر الفرات، وجاءته الدعوة أن يترك أرضه وعشيرته وينطلق إلى حيث يقول له الله!

وخرج تارح مع ابنه أبرام وابن اخته لوط واستقرَّ بهم المطاف في حاران. وظلَّ أبرام هناك إلى أن مات أبوه. وجاءته الدعوة مرة ثانية أن يترك أرضه وبيت أبيه ويذهب إلى حيث يقول له الله. وكان عمره خمسة وسبعين سنة، ومع ذلك فقدْ لبَّى الدعوة وترك حاران واتجه إلى كنعان - لم تكن له خطة موضوعة. كانت خطته «شخصاً» لا شيئاً. إنَّه يتبع الله، وحيث يقول الله، يستقر. هذا هو

الإيمان! يكفي أن نراه «هو» لأنَّه الطريق والحق والحياة!

لكن الأمر العجيب أنَّ الرَّجُل الذي يخرج من أرضه وهو لا يعلم إلى أين يذهب ومع ذلك يخرج مطمئناً عالماً أنَّ إلٰهه قد سبق ورسم طريقه، من العجيب إنَّ ذلك الرَّجُل بعينه يضطرب وجزع خوفاً من البشر!

حدث جوعٌ في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرَّب في الأرض لأنَّ الجوع كان شديداً. لم يقُل له الله، انزل إلى مصر، وإنَّما اتَّبع وحي تفكيره. وقبل أن يدخل مصر ساوره فكر اضطرب له. إنَّه يعلم أنَّ امرأته جميلة. كانت في ذلك الوقت أكثر من ستين سنة ومع ذلك فقد كان جمالها فاتنة. وخشى أبرام أن يراها المصريون فيقتلونه ويسلبونها. لم يكن المصريون همجاً بهذه الدرجة. كان في مصر مدنية وكان فيها قضاء وعدل، ولكن أبرام لم يكن يعلم ذلك. وأفضى لزوجته بما ساور فكره وطلب منها أن تقول إنَّها أخته ليكون له خير بسببها. ولسنا نعلم هل كان في فكره أنَّهم يأخذونها ويستبقونه، أم كان في فكره أنَّهم ربما تركوها لأنَّها ليست زوجته. الأرجح أنَّه كان يستند على نباهة زوجته وحذاقتها في التخلُّص من المأزق. على أنَّ ما أتاه إبراهيم كان أمراً قبيحاً. لم تكن هذه مجرد كذبة. لقد كانت انحداراً شديداً في وادي عدم الإيمان! داس أبرام على كل أُسس الشرف والكرامة والدين. ولعلَّه من النافع لنا أن نقرأ قصة عدم الإيمان هذه لنعرف أنَّ البشر بشر، وأنَّ لهم ضعفاتهم مهما بلغوا من القوَّة!

ورأى المصريون سارة زوجة أبرام، وقيل لهم إنَّها أخت رأس القبيلة الكبيرة الآتية من الشرق. وحُمِلَت إلى الملك ليتزوج منها، لا

لأنَّها جميلة فحسب، لكن لأنَّها أخت رجل كبير. فقد كان الزواج بين الملوك والحكام وسيلة لربط الأمم والممالك بعضها ببعض، وحفظ علاقات السلام بينها! وصار لأبرام خيرٌ بسبب ذلك!

ونستطيع أن نؤكد أنَّ سارة أعلنت لفرعون أنَّها زوجة الرَّجُل لا أخته، وإنَّها نهته عن الاقتراب منها، وحدَّثته أنَّ لها حماية في إلٰه السماء الرب سيد الأكوان، وإنَّها ذكرت له الكثير من صفات ذلك الإلٰه العظيم. ولم يصدِّقها فرعون في أول الأمر، وزعم أنَّها إنَّما تفعل ذلك لأنها تراه دميماً قبيح الشكل بينما هي حسناء. وهنا ضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة. ماذا كانت تلك الضربات وإلى أي مدى امتدت؟ لسنا نعلم، ولكنَّها كانت ضربات عظيمة، جعلت فرعون يصدِّق سارة ويدعو إليه زوجها ويوبِّخه توبيخاً صارماً من أجل كذبه، ثم يطرده من البلاد قائلاً: والآن هوذا امرأتك. خذها واذهب وأوصى عليه فرعون رجالاً فشيَّعوه وامرأته وكل ما كان له!!

ولا بد أنَّ أبرام خجل خجلاً عظيماً. إنَّه لم يجد كلمة واحدة يرد بها على فرعون. لذلك خرج خافض الرأس! وكان فرعون كريماً معه فتركه يذهب وترك له كل ما أعطاه له!

ولقد حصد أبرام ثمار مُرَّة لنزوله إلى مصر، سنراها في حينها. وإنَّما يحسن أن نذكر من الآن أنَّها جاءت عليه بسبب مصر. فقد حدث خصام بينه وبين لوط ابن أخيه بعد حوادث مصر. ونحن نحس بأن مقام أبرام قد انحدر في نظر ابن أخيه بسبب ذلك. ومن مصر أخذ أبرام هاجر المصرية التي لعبت دوراً هاماً في تاريخه، دوراً لا يزال أبناء إسحاق يذكرونه بمرارة! - بل إنَّ انحداره في

مصر لم يكن درساً يعلِّمه الصدق وإنَّما كان إثماً يعقبه إثم. فإنَّه في جرار بعد ذلك بمدة ارتكب نفس الفعلة فقال عن زوجته إنَّها أختي. وأخذها أبيمالك ملك جرار لتكون زوجته. والله تداخل في الأمر إذ ظهر له في حلم، وأمره بردِّ زوجة الرَّجُل إليه، بل طلب منه أن يلتمس من إبراهيم أن يصلِّي من أجله لأنَّه نبي!

أنَّ الذي يسلك في طريق الخطية مرة واحدة يجد أمامه طريقاً مفتوحاً لها!!

١١
فآمن أبرام بالله

«فَآمَنَ بِٱلرَّبِّ فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا.» (تكوين ١٥ : ٦)

تركنا أبرام وساراي يخرجان من مصر، وسنلاقيهما بعد وقت إبراهيم وسارة!! ويليق أن نرافقهما بعض الطريق!

خرجت الأسرة المختارة من مصر، وجعلت تضرب في الصحراء، متنقِّلة من مكان إلى مكان، وكان طريقها شاقاً فلا أقل من أن نحتمل مع الأسرة، بالفكر فقط، بعض هذه المشقَّة!!

سار أبرام إلى بيت إيل حيث كانت خيمته في البداءة، إلى مكان المذبح الذي عمله هناك أولاً. وهناك حدثت معه حادثة مؤلمة نغَّصت عليه حياته وكانت لها نتائج بعيدة المدى. فقد حدث خصام بين رعاة ماشية لوط ورعاة ماشيته. ولا بد أنَّ أبرام حاول أن يصلح الأمور ولم يفلح. ونحن نلاحظ في حديثه مع لوط أنَّ لوطاً اشترك في الخصام وأنَّه «فتح عينيه» في عمه ومصدر ثروته. لم يكن أبرام بعد مصر هو أبرام قبل مصر. ولم يثر العم ولم ينعت ابن أخيه بشر النعوت التي يستحقها. ولم يطرده، وكان يستطيع أن يسلبه كل ما معه ويطرده. ولو أنَّه فعل ذلك لما كان فعله أزيد من استرداد ماله. إذ أنَّ ثروة لوط كانت كلها من أبرام. كلَّا لم يفعل أبرام شيئاً من ذلك. وإنَّما تحدَّث برقّة إلى ابن أخيه، لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك لأننا أخوان. ولماذا

تكون الخاصمة، أمِنْ أجل المراعي هوذا الأرض واسعة الرحاب. أليست كل الأرض أمامك. اعتزل عني. إن ذهبتَ شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً!

وكأن لوطاً كان ينتظر الإذن له بالذهاب، فرفع عينيه ورأي كل دائرة الأردن أنَّ جميعها سقي، وإنَّها تشبه أرض مصر إلى حد كبير. لقد آذته مصر إذ سحرته بجمالها الخادع. فهو يبحث عن أقرب الأماكن إلى مصر، وهو ينقل خيامه إلى سدوم، لا يعبأ بشرِّها وقد كانت نهايته شر نهاية!

أما أبرام فبقي في مكانه حزيناً باكياً. كان لوط له بمثابة الابن العزيز إذ لم يكن له ابن، وها هو لوط يتركه. قيل إنَّه لم يتركه إلَّا بعد أن تزوج. وإنَّ الجانب الأكبر من نار الخصام كان من صنع زوجته. ورفع أبرام عيناً دامعة إلى إلٰهه، وأتي إليه إلٰهه ومسح دموعه، ولمس قلبه وجبر كسره، وقال له «ٱرْفَعْ عَيْنَيْكَ وَٱنْظُرْ مِنَ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي أَنْتَ فِيهِ شِمَالًا وَجَنُوبًا وَشَرْقًا وَغَرْبًا، لِأَنَّ جَمِيعَ ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَنْتَ تَرَى لَكَ أُعْطِيهَا وَلِنَسْلِكَ إِلَى ٱلْأَبَدِ. وَأَجْعَلُ نَسْلَكَ كَتُرَابِ ٱلْأَرْضِ، حَتَّى إِذَا ٱسْتَطَاعَ أَحَدٌ أَنْ يَعُدَّ تُرَابَ ٱلْأَرْضِ فَنَسْلُكَ أَيْضًا يُعَدُّ. قُمِ ٱمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ طُولَهَا وَعَرْضَهَا، لِأَنِّي لَكَ أُعْطِيهَا!»

يالها من رسالة ملأت صدره بالتعزية وقلبه باليقين والرجاء!!

ولم تطل راحة لوط في سدوم فقد قامت حرب اشتركت فيها سدوم وكُسِرَت، وحمل جميع من فيها مسبي السيف، وحمل لوط وبيته. وبلغ النبأ أبرام وكان جرحه لا يزال دامياً. لم ينس بعد «تفتيح لوط عينيه» في وجهه، ولم ينس «فضفضة» لسان زوجة لوط، ولكنه حالما سمع بالنبأ جمع رجاله ورجال حلفائه وشنَّ

حرباً على من سبوا سدوماً، وردَّ كل السبي إكراماً للوط. وحاول ملك سدوم أن يجعل أبرام يأخذ حقه من مال السبي، إذ قال له: «أعطني النفوس وأما الأملاك فخذها لنفسك». أما أبرام فيجيب جواباً عظيماً يليق بصديق الله «رَفَعْتُ يَدِي إِلَى ٱلرَّبِّ ٱلْإِلٰهِ ٱلْعَلِيِّ مَالِكِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ، لَا آخُذَنَّ لَا خَيْطًا وَلَا شِرَاكَ نَعْلٍ وَلَا مِنْ كُلِّ مَا هُوَ لَكَ، فَلَا تَقُولُ: أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ»

ومرَّت الأيام على أبرام طويلة مملة حتى ضاقت نفسه. ها هو يتقدم بخطوات سريعة نحوالنهاية، وزوجته لا تقل عنه شيخوخة. وهذه الثروة التي له تتزايد كل يوم. إنَّه يبغضها. إنَّها تظهر أمامه سياط تلهب ظهره لماذا يجمعها ولماذا يكوِّمها؟؟

وفي إحدى الليالي نام بصدرٍ مثقل وقلب حزين. وفي وسط الليل جاءه الله في رؤيا وقال «لا تخف يا أبرام. أنا تُرْسٌ لك. أجرك عظيم جداً» وقال أبرام الله شاكياً: «أي أجر هذا أيُّها السيد الرب، وما فائدة العطايا الكثيرة لي وأنا ماض عقيماً، وسيكون وارثي عبدي أليعازر الدمشقي؟؟ نعم يارب فإنَّك لم تعطني نسلاً وهوذا ابن بيتي وارث لي!» ولكن الله قال له: «لا. لا يرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك!» ثم أخرجه إلى خارج وقال: «انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها.. هكذا يكون نسلك!»

كانت كل الظروف التي تحيط بأبرام تحكم باستحالة هذا الكلام. فأبرام فوق الثمانين وزوجته فوق السبعين. وقد انقطع رجاء الاثنين في الأولاد. ولكن الله يقول إنَّ نسله لن يُعد من الكثرة. إنَّ الظروف تحكم بغير ذلك، ولكن الله يقول بذلك. الله

صادق وأمين، الله كلامه حق !

وآمن أبرام بالله!

وحسب الله إيمان أبرام برًّا!

١٢
إسماعيل

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ للهِ: «لَيتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ!»
(تكوين ١٧: ١٨)

آمن أبرام بالله!

وانتظر تحقيق الوعد!

وطال انتظاره!

وطال انتظار زوجته ساراي!

ولم يأتِ الابن المنشود!

وهنا تأتي ساراي عملاً من تلك الأعمال النبيلة. أنَّها تحاول أن تساعد على إتمام وعد الله. لقد قال الله لأبرام إنَّ نسله سيكون مثل نجوم السماء في الكثرة. لكن كيف يجيء ذلك النسل. إنَّه لن يأتي منها بالطبع، فقد انقطع أن يكون لها عادة كالنساء!

إذن ممن يأتي ذلك النسل؟ لماذا لا يأتي من امرأة أخرى؟

لم يكن هذا فكراً سهلاً!

إنَّه إذ يمرُّ بخاطر المرأة يهزها ويقلب كيانها، ويحوِّل نورها إلى ظلام، وضحكها إلى غم! ولكن سارة فكَّرت في ذلك، بل قدَّمت المرأة الأخرى لزوجها، فهي تقول له: هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة، أُدخل إلى جاريتي هاجر لعلِّي أرزق منها بنين!

كان الاقتراح ظاهر الحسن ولكن أبرام لم يقبله بسهولة. وكان

على ساراي أن تقدِّمه وتوضحه وتلحّ على زوجها في قبوله إلى أن تم لها وتزوّج من الجارية!

وحبلت الجارية!

وأحسَّت أنَّها شيء مذكور!

نعم هي جارية ساراي، ولكنها تحمل في أحشائها وريث أبرام سيد البيت. وستكون هاجر إذ ذاك، لا جارية، وأنَّها سيدة مكرَّمة! أليست هي أم سيد البيت؟ أما ساراي فمن هي، وما هي قيمتها بدون أولاد؟ وجعلت هاجر تعامل سيدتها باحتقار وازدراء. ويبدو أنَّها وجدت من أبرام بعض العناية فظنَّت أنَّه سيقف إلى جانبها ضد ساراي!

وازداد تطرُّف الجارية في مسلكها حتى ضاقت ساراي بها ذرعاً، واشتكت إلى زوجها، قالت: «ظلمي عليك. أنا دفعت جاريتي إلى حضنك فلما رأت أنَّها حبلت صَغَرْتُ في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك!»

وتأثر أبرام ويغلب أنَّه لاحظ أنَّه سلك في بعض الأوقات مسلكاً يساعد على وجود الظن عند هاجر أنَّها أصبحت الزوجة لا الجارية. ولذلك قال لزوجته: «هوذا جاريتك في يدك، ٱفعلي بها ما يحسن في عينيك!»

وها نحن نرى المرأة الجريح، في انتقامها. فقد عاملت ساراي جاريتها بمنتهى الشِّدَّة. وأحسَّت هاجر أن الحياة أصبحت لا تُطاق، ليس فقط لان ساراي كانت قاسية عليها، لكن لأنَّ هاجر كانت قد أخذت على حياة ألين، فهربت. ولكن ملاك الرب أمرها بالعودة والاحتمال، وقال لها ملاك الرب: ««تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلَا

يُعَدُّ مِنَ ٱلْكَثْرَةِ. هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ٱبْنًا وَتَدْعِينَ ٱسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لِأَنَّ ٱلرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ. وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ». وعادت هاجر إلى بيت إبراهيم. ولما تمَّت أيامها ولدت ابناً دعاه أبوه إسماعيل. لا بد أنَّ هاجر قصَّت لأبرام قصة الملاك ويغلب أن مسلكها بدأ يتغيَّر، وتغيَّر تبعاً لذلك مسلك سارة - وكان أبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل!

ولا يمكن أن نصف البهجة التي ملأت بيت أبرام بولادة إسماعيل، وقد أحبَّه أبوه حبًّا مفرطاً وتمنَّى لو أنَّ الله يسمح أن يكون هو ابن العهد. قال إبراهيم لله: «ليت إسماعيل يعيش أمامك!» فقال الله: «بل سارة امرأتك تلد لك ٱبناً، وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثنى عشر رئيساً يلد واجعله أمَّةً كبيرة. ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية»

وخُتِنَ إسماعيل لما كان عمره ثلاث عشرة سنة - خُتِنَ مع إبراهيم أبيه ومن ذلك الوقت تغيَّر اسم أبرام إلى إبراهيم، وساراي إلى سارة.

ووُلِدَ إسحاق - وستكون قصة ميلاده موضوعاً لحديث آخر- وكان ميلاده إيذاناً بانتهاء مجد إسماعيل. وتآمرت هاجر وابنها ضد إسحاق . كان إسحاق ابن خمس سنوات كما يقول التلمود عندما لاحظت سارة أنَّ إسماعيل كان يمزح. ولا نعلم بالضبط ما هو الفعل الذي عبَّرت عنه القصة بالقول «يمزح». قيل إنَّه كان

يتكلَّم كلمات قبيحة جداً ويعمل أعمالاً قبيحة مع إسحاق ، أعمالاً ذِكْرُها أيضاً قبيح. وقيل إنَّه كان يحمل جعبته وسهامه وإنَّه كان قبل خروجه للصيد يصوِّب أحد سهامه مازحاً نحو إسحاق، وهو يقول سأقتلك!

ولم تسترح سارة إلى هذا «المزح» وطلبت أن يطرد إبراهيم هاجر وابنها من البيت قائلة إنَّه لا يجوز أنَّ ابن الجارية يرث مع إسحاق. وقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه. ولكن الله أمر إبراهيم أن يفعل كما قالت سارة «لانه بإسحاق يُدعى لك نسل» - «وابن الجارية أيضاً سأجعله أُمَّةً لأنَّه نسلك»

وأطاع إبراهيم كارهاً!

في الصباح أخذ خبزاً وقربة ماء وأعطاها لهاجر واضعاً إيَّاها على كتفها - ثم أعطاها الولد وصرفها. صرفها لا إلى البرية كما قد يتبادر إلى الذهن بل إلى خيمة أخرى من خيام إبراهيم، ولكن هاجر تاهت في برية بئر سبع، وفرغ الماء منها، واشتدَّ عطش الغلام، وجفَّ حلقه إلى درجة اليبوسة، وأوشك أن يموت. واشتدَّ كرْب هاجر. هل يموت ابنها بين يديها، وهل تراه وهو يلفظ أنفاسه؟ كلَّا إنَّها لا تطيق أن تنظره يموت فهي تطرحه تحت إحدى الأشجار، وتبتعد عنه نحو رمية حجر ثم ترفع صوتها وتبكي!

وارتفع إلى السماء صوت بكاء هاجر وصوت بكاء الغلام ممتزجين معاً. وسمع الله، فأرسل ملاكه يشدِّدها، ويكشف عن عينيها، فترى بئر ماء، كانت البئر موجودة طول الوقت، ولكن هاجر لم ترها إلى أن هداها الملاك إليها. وشرب الغلام وشربت هاجر وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن في البرية وكان ينمو رامي

قوس. وسكن في برية فاران. وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.

ولم نعد نرى إسماعيل بعد ذلك إلَّا مرتين، المرة الأولى رأيناه وهو يدفن أباه والمرة الثانية لم نره هو ولكننا رأينا عيسو يتزوج من ابنته!

على أنَّنا نسمع أنَّ إسماعيل سكن في بلاد العرب، وإن قبائل قريش جاءت من نسله، وانقسم العالم الديني إلى قسمين المسيحيين وينسبون أنفسهم إلى إسحاق، والمسلمين وينسبون أنفسهم إلى إسماعيل!

١٣
إسحاق

«لِأَنَّهُ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ» (تكوين ٢١: ١٢)

إسحاق ابن الوعد!

طال ترقُّب والديه لمجيئه. ومع أنَّهما آمنا بالله، فقد تزعزع ذلك الإيمان أحياناً!

فهذا إبراهيم يقول إنَّك لم تعطني نسلاً، وهوذا ابن بيتي وارثٌ لي! وهذه سارة تقول لزوجها هوذا الرب قد أمسكني عن الولادة، أُدخُل إلى جاريتي لعلِّي أُرزق منها بنين، وزوجها يسمع لها!

يسمع إبراهيم الله يقول له: إنَّ امرأته لا تُدعى فيها بعد ساراي بل سارة، وإنَّ الله سيباركها ويعطيه أيضاً منها ابناً يباركها فتكون أمماً، وملوك شعوب منها يكونون. يسمع إبراهيم ذلك فيسقط على وجهه ويضحك، ويقول في قلبه هل يولد لابن مئة سنة، وهل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة؟؟ وهكذا تفعل سارة!

كان إبراهيم جالساً في باب خيمته عند حرِّ النهار عندما مرَّت عليه ملائكة الله في صورة بشر، وقد أضافهم إبراهيم وأكرمهم. وبعد أن تناولوا الطعام سألوه أين سارة امرأتك؟ وأجاب ها هي في الخيمة. وقال ملاك الرب إنِّي ارجع إليك نحو زمان الحياة، ويكون لسارة ابن! فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبَعْد فنائي

يكون لي تنعُّم وسيدي قد شاخ؟ ووبَّخ الملاك عدم إيمانها قائلاً: لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة أَلِد وأنا قد شخت، هل يستحيل على الرب شيء؟ ومع أنَّ سارة أنكرت أنَّها ضحكت فإنَّنا نحس معها أنَّ لها الحق أن تضحك. هل تلد امرأة عمرها تسعون سنة؟

وافتقد الرب سارة كما قال، وفعل الرب لسارة كما تكلَّم، فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته، في الوقت الذي تكلَّم الله عنه، ودعا إبراهيم اسم ابنه إسحاق! وكان إبراهيم ابن مئة سنة حين ولد له إسحاق ابنه. وقالت سارة قد صنع إليَّ الله ضحكاً. كل من يسمع يضحك لي. وقالت: من قال لإبرهيم سارة ترضع بنين. حتى ولدت ابناً في شيخوخته؟

وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام - ويوم فطم الولد صنع إبراهيم وليمة عظيمة.

وتربَّى الولد في أحضان العناية. كان إسحاق أكرم على والديه من كل شخص وكل شيء، من أجله طرد اسماعيل وأمّه من البيت إذ لا يجوز لابن الجارية أن يرث مع ابن سارة. ومن أجله ضحَّى إبراهيم بقلبه كأبٍ يوم أرسل إسماعيل بعيداً!

وبلغ إسحاق سنَّ الصبا!

وَحَدَثَ أَنَّ ٱللهَ ٱمْتَحَنَ إِبْرَاهِيمَ!

فَقَالَ لَهُ: «يَا إِبْرَاهِيمُ!». فَقَالَ: «هَأَنَذَا»!

فَقَالَ: «خُذِ ٱبْنَكَ وَحِيدَكَ، ٱلَّذِي تُحِبُّهُ، إِسْحَاقَ!

خُذْ إِسْحَاقَ إِلَى أَرْضِ ٱلْمُرِيَّا!

وَأَصْعِدْهُ هُنَاكَ مُحْرَقَةً عَلَى أَحَدِ ٱلْجِبَالِ ٱلَّذِي أَقُولُ لَكَ»!

يا لها من تجربة!

ابنك؟!

وحيدك؟!

الذي تحبه؟!

إسحاق؟؟!!

إلى أين يارب؟

إلى جبال المريا؟

نعم يارب؟

وأصعده لي محرَقة؟!!

إسحاق، أُصعده أنا بيدي محرَقة؟

اضطرب إبراهيم كما يضطرب الطير الذبيح، ولكنه أجاب نعم يارب نعم يارب!!

وفي الصباح باكراً، شدَّ على حماره وطلب من اثنين من غلمانه أن يرافقاه، وأخذ طريقه مع إسحاق إلى حيث أمر الله أن يذهب. ولئِن كان الكاتب قد سكت عن وصف ما كان يعتلج في صدر إبراهيم، فإنَّنا نحن نكاد نلمس ذلك الهمّ الثقيل الذي أحنى ظهر ذلك الرجل الشيخ. ولكم وشوش الشيطان في أذنيه: عُد أيُّها الرجل، عُد من رحلتك المشئومة هذه. كيف تطاوع دعوة مخيفة كهذه الدعوة. فكِّر في حياتك بدون إسحاق. لقد كانت حياتك قبل أن يأتي صحراء جدباء موحشة ولكنها ستكون بعد أن يذهب جحيماً يلتهب سعيره. إنَّ الموت سيكون بركة إذا ما جاء إليك.

وتلك الآمال التي راودت خيالك يوم ولد إسحاق، ذلك الشعب الذي ظللت تحلم به، الجمهور الكبير من الأمم الذي تغيَّر اسمك بسببه من أبرام إلى إبراهيم. وأرض كنعان التي عشت فيها غريباً في خيام، وأنت تنتظر أن يرثها نسلك. وأسفاه لقد انتهى كل ذلك فإنَّ إسحاق سيموت!!

وليته يموت ميتة هينة. ليته يموت في أحضان أمه. ولكنه سيموت مذبوحاً وتلك اليد الآثمة التي ستذبحه هي **يد أبيه!!**

❊❊❊

ظلَّ الشيطان يوشوش في أذن إبراهيم بمثل هذا الكلام، وإبراهيم ينحني وينحني إلى أن كاد إيمانه يضيع. ولكن تلك اليد الإلٰهية أسعفته فهو يرفع عينيه إلى السماء، ويذكر كلمات الله نفسه، بإسحاق يُدعى لك نسل. وإن ذُبِحَ إسحاق فإنَّ الله سيقيمه... ولئن سُرَّ الله أنَّه يموت وينتهي فلتكن إرادة الله. إنَّ إسحاق عزيزٌ عليَّ، أعزُّ من مالي، ومن زوجتي.. نعم وهو أعز عندي من نفسي. ولكن الله أعزّ منه، ورضاء الله عندي هو غاية مُناي ومقصدي!!

كان إبراهيم يتحدّث إلى نفسه بمثل هذا الكلام عندما سمع ابنه إسحاق يناديه: «يا أبي، ها أنا أرى الحطب والنار، فأين الذبيحة التي ستقدِّمها يا أبي؟» وتمزَّق قلب إبراهيم وهو يسمع تلك الكلمات، وكاد يجأر بالبُكاء ويقول: أنت هو الذبيحة يا ابني. ولكنه تجلَّد وأمسك دموعه وقال: الرب يرى له الذبيحة يا بني!!

وعند سفح الجبل طلب إبراهيم من الغلامين أن ينتظرا وأخبرهما أنَّه سيعود مع إسحاق بعد وقت. إذ لم يشأ أن يشاهدا أقدس عمل سيقوم به في حياته!!

***

وصعد الأب والابن إلى الجبل. وتحدث الأب مع ابنه عن أمر الله. وقابل الابن ذلك بكل تسليم. عندما رتَّب إبراهيم المذبح ووضع الحطب، وجاء أوان ربط الذبيحة وضع إسحاق!! قيل إنَّ إسحاق طلب منه ألَّا يربطه مؤكِّدا له أنَّه لن يتحرك من مكانه، وقيل غير ذلك، إنَّه طلب من أبيه أن يشد رباطه حتى لا يسبب تعباً لأبيه في ذبحه!!

وأمسك إبراهيم السكين، وكان على وشك ذبح إسحاق عندما قبضت على يده يد غير منظورة وجاءه صوت عال، إبراهيم إبراهيم ! فقال هأنذا

لا تمدُّ يدك إلى الغلام ولا تفعل شيئاً لأنِّي الآن علمت أنَّك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عنِّي. ورفع إبراهيم عينيه ناحية الصوت ليرى من هو الذي يكلِّمه في يرَ إنساناً ولكنه رأى كبشاً مربوطاً بقرنيه. لم يكن هناك كبشٌ قبلاً. أذن السماء هي التي أرسلته. فحلَّ ابنه وجاء بالكبش، وهو يقول حقاً قد رأى الرب الذبيحة لنفسه وقدَّم الكبش لله ذبيحة. وإذا به يسمع الصوت مرة أخرى صوت الله نفسه أو صوت ملاكه يقول: «بِذَاتِي أَقْسَمْتُ، يَقُولُ ٱلرَّبُّ، أَنِّي مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَعَلْتَ هٰذَا ٱلْأَمْرَ، وَلَمْ تُمْسِكِ ٱبْنَكَ وَحِيدَكَ، أُبَارِكُكَ مُبَارَكَةً، وَأُكَثِّرُ نَسْلَكَ تَكْثِيرًا كَنُجُومِ ٱلسَّمَاءِ وَكَٱلرَّمْلِ ٱلَّذِي عَلَى شَاطِئِ ٱلْبَحْرِ، وَيَرِثُ نَسْلُكَ بَابَ أَعْدَائِهِ، وَيَتَبَارَكُ فِي نَسْلِكَ جَمِيعُ أُمَمِ ٱلْأَرْضِ»!!

وعاد إبراهيم وإسحاق والبهجة تملأ صدريهما. وحدَّث

إبراهيم سارة بكل ما حدث. ونحن ننظر بكل التقدير إلى إبراهيم الذي لم يمسك ابنه من أجل الله ولكننا ننظر بكل خشوع إلى الآب الذي لم يمسك ابنه من أجل الخطاة!!

١٤

الأميرة

«وَقَالَ ٱللهُ لِإِبْرَاهِيمَ: «سَارَايُ ٱمْرَأَتُكَ لَا تَدْعُو ٱسْمَهَا سَارَايَ، بَلِ ٱسْمُهَا سَارَةُ. وَأُبَارِكُهَا وَأُعْطِيكَ أَيْضًا مِنْهَا ٱبْنًا» (تكوين ١٧: ١٥ و١٦)

كان اسمها ساراي أي سيدتي أو أميرتي وصار اسمها سارة أي السيِّدة أو الأميرة. ولقد كان لها من اسمها نصيب كبير، فقد كانت في الحقِّ سيدة جليلة وأميرة خطيرة!

ولقد رأيناها أول ما رأيناها زوجة للشاب أبرام بن تارح. ومن حديث زوجها في ما بعد نعلم أنَّها كانت أخته ابنة أبيه فقط!

ومع أنَّ سارة عاشت في ظلِّ إبراهيم إلَّا أنَّ إبراهيم لم يستطع أن يخفي كل ضيائها. ومع أنَّ قصة حياتها يمكن أن تندمج في قصة حياة إبراهيم، إلَّا أنَّ شخصيتها القوية تبرز بحيث تتطلب دراسة مستقلة لتلك الحياة!

وأول ما نعرفه عن سارة أنَّها كانت جميلة جداً بل آية في الجمال. ولقد بقي جمالها أخَّاذاً ساحراً حتى بعد أن وصلت إلى حدود الشيخوخة. بعد السبعين بل بعد الثمانين قال لها زوجها «إنّي قد علمت أنَّك امرأة حسنة المنظر» - على أنَّ جمالها الفتَّان هذا كان مصاحباً بجمال داخلي أعمق. وحياتها حياة السيدة.. السيدة الجميلة

حقًّا!

ونحن نرى جمالها البهيّ في جمال وفائها وطاعتها. ها هو تارح يقول: هيا هيا يا ناحور. هيا يا أبرام . هيا يا لوط - ولكن ناحور تردد. قيل إنَّ ملكة زوجته رفضت أن تترك مكانها. أما ساراي زوجة أبرام فلم تعترض. إنَّها تترك الأمر لحكمة «سيدها».

واستقر تارح في حاران إلى أن مات.. وبعد موته صار أمر إلى أبرام، اذهب من أرضك ومن عشيرتك. وزوجته لا تعترض ولا تتذمَّر بل ها هو ينتقل من مكان إلى مكان. لا يستقر في مكان، وسارة هي هي، تحمل ذات الابتسامة القديمة. إنَّ لها شخصية قوية ولكنها لا تحاول أن تتسيطر على رجُلِهَا بل تقدم له الطاعة والإكرام!

بل لقد بلغ من ولائها له أنَّها ارتضت أن توافقه على أنَّها أخته لا زوجته وارتضت أن تُحمَل إلى بيت فرعون وبيت ابيمالك. لقد قال لها أبرام إنَّ حياته رهن برضائها وحياته عندها أهم من حياتها ومن كرامتها. لقد كانت تعلم أن الله سيحفظها. نزل أبرام إلى مصر وطلب رجال فرعون «أخت» أبرام فحملوها إلى القصر. ولكنها دخلت «سيدة». إنَّها تختلف عن كل النساء اللواتي دخلن إلى القصر. إنَّ لها هيبة ووقاراً. إنَّها جميلة فاتنة ولكن في جمالها نوراً قدسياً. إنَّ فرعون لا يجسر أن يتطلّع إليها، ولا يستطيع أن يعاملها كما يعامل بقية النساء. إنَّها تحمل إليه صورة أقدس من صور الآلهة الذين آمن بهم. إنَّه ينام ويقوم وهو يفكر في ذلك المجال القدسي. ومُذ دخلت إلى قصر فرعون أُصِيبَ بيت فرعون بضربات. قيل إنَّ نساءه أُصبن جميعاً بالعُقم وإنَّه هو أصيب بالانحلال. وقيل إنَّ

الله كشف له في الليل أنَّ سبب ذلك أخذه لزوجة أبرام. وفرعون يستدعي أبرام ويوبِّخه توبيخاً صارماً ويأمره بترك البلاد. فهل استطاع أن يجد كلمة يقولها ضد سارة؟ لقد كانت سارة سيدة!!

وتكرَّر هذا الأمر بعد سنين عديدة عندما تغرَّب أبرام في جِرَار وقال عن سارة امرأته هي أختي، وأخذها أبيمالك ملك جرار. ولكنه أيضاً لم يرَ فيها جمال الجسد الذي يستهوي الغرائز، بل رأي جمالاً آخر سامي ونبيلاً. وهو يكتشف كما اكتشف أيضاً فرعون أنَّ المرأة متزوجة.. وهو يردها معزَّزة مكرَّمة إلى زوجها. يوبِّخه هو ولكنه يكرمها هي!!

وقامت المخاصمة بين زوجها وابن أخيه، وكان يمكن لزوجة إبراهيم أن تشعل النار وتثير الفتنة، وتأخذ مال لوط، وترسله فارغاً. كان يمكن أن تحرِّض أبرام على فعل ذلك، وكان في إمكان أبرام أن يلاشي لوطاً. ولكننا لا نسمع حس سارة. إنَّها لا تتداخل في المنازعات بين الرجل وابن أخيه. وهي تعلم أنَّ سبب الخصام الأساسي في بيت لوط، وإنَّ زوجة لوط هي «محراك النار» ولكن ذلك أيضاً لا يثيرها. إنَّها تعلم أنَّ إثارة الرجل تؤذي أول ما تؤذي نفس زوجها!

وذهب لوط إلى سدوم واتَّسع اتّساعاً عظيماً.. وفي أحد الأيام حملت الأنباء إلى أبرام أنَّ مدينة سدوم قد سُبِيَت وأن لوطاً وزوجته وجميع من له وما له قد حملوا إلى السبي. وكان يُنتَظر أنَّ سارة تبتسم ابتسامة عريضة هي ابتسامة الشماتة بتلك المرأة الشريرة التي قسمت البيت وفتحت الجروح، ولكنها لم تفعل شيئاً، بل ساعدت على أن يقوم رجُلها ويضع حياته في كفِّهِ ويرد سبي لوط. فكانت

سيدة حقًّا بل أكرم سيدة!!

وتنقضي عليها السنون وهي لا تحبل ولا تلد. ومع أنَّها قد سمعت الوعد أنَّ نسل أبرام سيكون كرَمل البحر، وفهمت أنَّ ذلك النسل سيأتي منها إلَّا أنَّها لم تقلق ولم تنفعل ولم تفكر في هذه الوسيلة أو في تلك - فلما يطول أمد عقمها تقوم بعمل لا تعمله امرأة. تعطي جاريتها لزوجها حتى يلد منها النسل الذي وُعِدَ به. ولا يمكن أن يدرك مقدار تلك التضحية إلَّا امرأة. بل إنَّ الوقت لا يطول علينا حتى ندركها. فعندما أحسَّت الجارية أنَّها حُبلى صغرت سيدتها في عينيها، وتطور هذا إلى احتقار وإهانة. إنَّ الجارية قد صارت زوجة وعما قريب ستصبح أمًّا. وهنا لم تستطع سارة أن تحتمل أكثر. هنا أدركت ثِقل التضحية فذهبت إلى زوجها واشتكت: «ظلمي عليك أنا دفعت جاريتي إلى حضنك. فلما رأت أنَّها حُبلى صغرتُ في عينيها. يقضي الرب بيني وبينك.» يبدو أنَّ الجارية كانت لا تعلم شيئًا عن شخصية سيدتها ولا قلب سيدها. أما أبرام فأطلق يد سارة في جاريها. وكانت سارة امرأة فاذلَّت غريمتها وكانت يدها شديدة فلم تستطع هاجر إلَّا أن تهرب!

ولكن ملاك الله طلب منها أن تعود وبشَّرها بميلاد إسماعيل وقال إنَّه سيكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه.. وولدت هاجر إسماعيل لما كان عمر أبرام ستة وثمانين سنة!

مرَّت ثلاث عشرة سنة وسارة تنتظر، والمولود المرتقب لا يأتي. وجاءت البركة أخيراً جاءت ملائكة في صورة بشر ودعاهم إبراهيم إلى بيته. وطلب من زوجته أن تعدّ للضيوف طعاماً.

إنَّ ثقل الضيافة يقع جلّه على المرأة ولو كان عندها خدم

كثيرون. ولا شيء يسيء إلى المرأة بمقدار مفاجأتها بالضيوف. ولكن سارة لا تغضب من إبراهيم بل تعمل جهدها فتقدم الطعام بدون تأخير للضيوف الذين جاءوا وقت حرِّ الظهيرة.

ويأكل الضيوف خارج باب الخيمة وسارة داخل الخيمة مستعدة لكل طلب. ويسأل الملاك عن سارة ويقول إنَّه سيكون لها ابن في سنة من الزمان. كان عُمر سارة نحو تسعين سنة وقت ذاك. وهي تسمع أنَّها ستلد لذلك لا نتعجب إذ نراها تضحك. وكامرأة فاضلة تضحك في باطنها وتهمس لنفسها «أبعد فنائي يكون لي تنعُّم وسيدي قد شاخ» والملاك يوبخها برفق لأنَّها ضحكت وهي تضطرب فتنكر أنَّها ضحكت وتؤمن بوعد الله، تؤمن بالرغم من أنَّه قد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء أو كما يقول كاتب سِفْر العبرانيين «بالإيمان سارة نفسها أيضاً أخذت قدرة على إنشاء نسل وبعد وقت السنِّ ولدت إذ حسبت الذي وعد صادقاً».

وجاء إسحاق!

لا بد أنَّ فرح سارة كان طاغياً. ها قد جاء أخيراً الابن الذي وُعِدَ به.

وكان إسحاق موضوع عنايتها!

أعتنت بجسمه!

واعتنت بروحه!

وكان كل فرد في بيت إبراهيم يرعى إسحاق ويطلب له الخير ماعدا شخصين: هاجر وإسماعيل!

ويقول الكتاب إنَّ سارة رأت ابن هاجر يمزج ... ولا نعلم

بالضبط ما كان ذلك الفِعْل. يقول الرسول بولس إنَّه كان يضطهد إسحاق . ويقول التقليد إنَّه كان يعمل عملاً قبيحاً مع إسحاق. ولا شك أنَّ هاجر كانت تحرِّض ابنها على الإساءة إلى إسحاق، ونُطق الألفاظ البذيئة قدامه، وعمل الأعمال القبيحة معه. وتعرَّض إسحاق لنتائج سيئة في جسمه وذهنه وروحه!!

وهنا ثارت الأم تدافع عن ولدها!

إنَّ المرأة التي كانت مثالاً للدعة والهدوء والتسامح وكرم النفس تثور كالنمرة وتقول: «اطرد هذه الجارية وابنها»!

ساءَ الكلام في عيني إبراهيم وقبح الكلام في عينيه لسبب ابنه ولكن الله يقول له لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها...

ولقد حاول الكثيرون أن يلوموا سارة ويتَّهموها بالقسوة. والامر يبدو كذلك لأول وهلة. ولكن الدارس المدقِّق يلاحظ أنَّه كان يلزم أن تعمل ذلك، وإلَّا تعرَّضت نفس إسحاق للضياع.

لقد كانت أمًّا!

وكأُم أمينة لواجبها ينبغي أن تفصل ابنها عن الوسط الشرير!

وقد فعلت!

وكبر إسحاق!

ونشأ ابناً تقيًّا مستقيماً!

كان أبوه يحبه!

ولكن أمه كانت تعبده. كانت ترعاه بعينها وبقلبها!

وجاءت كارثة!

الله يأمر أن يقدِّم إبراهيم ابنه إسحاق على أحد الجبال!

كان إسحاق غلاماً في نحو الثالثة عشرة

وبكَّر إبراهيم صباحاً!

أخذ معه كل ما يلزم للذبيحة وأخذ معه غلامين!

وسار هو وإسحاق والغلامان!

لكن القصة لا تذكر سارة!

يحاول البعض أن يبعد سارة عن الميدان، فيقول إنَّ إبراهيم استيقظ مبكراً قبل أن تستيقظ سارة، وإنَّه أخذ إسحاق من حضنها، وإنَّه خرج دون أن يقول لها!

فهل نستطيع نحن أن نصدِّق ذلك؟

هل يمكن أن يؤخذ إسحاق من حضن سارة دون أن تستيقظ؟؟!!

هل يمكن أن يتم ترتيب ذبيحة تتطلَّب حطباً ناراً وغلامين وحماراً... كل هذا دون أن تدري سارة؟

أم الأصح إنَّ إبراهيم تحدَّث إلى سارة؟

وإنَّ سارة استقبلت الأمر الإلٰهي بتسليم!

نعم انكسر قلبها ووصل الجرح إلى عمق قلبها، وبكت ما شاء لها البكاء، وناحت على وحيدها. ولكنها كانت تؤمن في قلبها أن الله سيرى له الذبيحة. أو أنَّ الله سيقيم ابنها من الأموات. كانت في قرارة حزنها مؤمنة مسلِّمة!

وأعطت ابنها لإبراهيم ليقدمه لله!

نعم هذه هي سارة!

لا يمكن أن نقبل أن تكون سارة ما يحاول البعض أن يصوِّروه من الكسل والجهل وعدم الدراية!

بل إنَّ سارة هي امرأة الإيمان!

تؤمن إنَّ الله قادر أن يعطيها ابناً بعد الوقت!

وتؤمن إنَّ الله قادر أن يقيم من الأموات!

ومرت سنوات.. وجاءت الساعة التي انطلقت فيها سارة إلى ربِّها ذاكرة فضله شاكرة حبه

وتزوَّج إبراهيم امرأة بعد سارة.

فهل انتهت تلك السيدة؟

وهل وضع التاريخ نقطة كبيرة في نهاية قصتها؟... كلَّا

فهوذا بطرس بعد ألوف السنين يتحدَّث إلى نساء الكنيسة المسيحية فيقول: «كَذٰلِكُنَّ أَيَّتُهَا ٱلنِّسَاءُ، كُنَّ خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِكُنَّ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ ٱلْبَعْضُ لَا يُطِيعُونَ ٱلْكَلِمَةَ، يُرْبَحُونَ بِسِيرَةِ ٱلنِّسَاءِ بِدُونِ كَلِمَةٍ، مُلَاحِظِينَ سِيرَتَكُنَّ ٱلطَّاهِرَةَ بِخَوْفٍ. وَلَا تَكُنْ زِينَتُكُنَّ ٱلزِّينَةَ ٱلْخَارِجِيَّةَ، مِنْ ضَفْرِ ٱلشَّعْرِ وَٱلتَّحَلِّي بِٱلذَّهَبِ وَلِبْسِ ٱلثِّيَابِ، بَلْ إِنْسَانَ ٱلْقَلْبِ ٱلْخَفِيَّ فِي ٱلْعَدِيمَةِ ٱلْفَسَادِ، زِينَةَ ٱلرُّوحِ ٱلْوَدِيعِ ٱلْهَادِئِ، ٱلَّذِي هُوَ قُدَّامَ ٱللهِ كَثِيرُ ٱلثَّمَنِ. فَإِنَّهُ هٰكَذَا كَانَتْ قَدِيمًا ٱلنِّسَاءُ ٱلْقِدِّيسَاتُ أَيْضًا ٱلْمُتَوَكِّلَاتُ عَلَى ٱللهِ، يُزَيِّنَّ أَنْفُسَهُنَّ خَاضِعَاتٍ لِرِجَالِهِنَّ، كَمَا كَانَتْ سَارَةُ تُطِيعُ إِبْرَاهِيمَ دَاعِيَةً إِيَّاهُ «سَيِّدَهَا». ٱلَّتِي صِرْتُنَّ أَوْلَادَهَا، صَانِعَاتٍ خَيْرًا، وَغَيْرَ خَائِفَاتٍ خَوْفًا ٱلْبَتَّةَ».

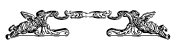

١٥

المرأة التي صارت عمود ملح

«وَنَظَرَتِ ٱمْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ»
(تكوين ١٩ :٢٦)

ما أقلّ ما سجَّله الوحي عن هذه المرأة!

إنَّه لم يذكر اسمها!

ولم يرسم صورة تقريبية لشكلها!!

ولم يصف أخلاقها أو دينها!

هذا كل ما كتبه الوحي عنها:

«وَلَمَّا طَلَعَ ٱلْفَجْرُ كَانَ ٱلْمَلَاكَانِ يُعَجِّلَانِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذِ ٱمْرَأَتَكَ وَٱبْنَتَيْكَ ٱلْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلَّا تَهْلِكَ بِإِثْمِ ٱلْمَدِينَةِ». وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ ٱلرَّجُلَانِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ ٱمْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ٱبْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ ٱلرَّبِّ عَلَيْهِ، فَأَمْطَرَ ٱلرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ ٱلرَّبِّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ. وَقَلَبَ تِلْكَ ٱلْمُدُنَ، وَكُلَّ ٱلدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ ٱلْمُدُنِ، وَنَبَاتِ ٱلْأَرْضِ. وَنَظَرَتِ ٱمْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ.»

ولكننا نقرأ بين سطور مأساة لوط قصة زوجته التعسة!

خرج لوط مع عمه أبرام بن تارح، خرج وهو لا يملك شيئاً أو لعلَّه كان يملك شيئاً قليلاً وكان لوط ينظر إلى إبراهيم بكل احترام وولاء وكان يرى فيه المَثَل الأعلى للإنسان الكامل.

وبارك الله أبرام!

فكثرت غلَّاته وتضاعفت أغنامه وماشيته واتسعت ثروته!

ولوط السائر مع أبرام كان له أيضاً غنم وبقر وخيام!

وقامت منازعة بين لوط وأبرام!

قيل إنَّ سببها إنَّ الأرض لم تحتملهما أن يسكنا معاً. وإنَّ مخاصمات قامت بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط

كان هذا السبب الظاهر!

لكننا نسأل منذ متى كان للوط أن يرفع وجهه أمام أبرام وهو يعلم أنَّ كل ما عنده إنما جاءه عن طريق أبرام. وإنَّها بركة عمَّه لا بركته هو، هي التي جعلت ثروته تتسع؟!

وكان لوط لا يجسر أن ينظر إلى وجه عمَّه. وكان يعامله معاملة الابن لأبيه في تلك الأيام، أي أيام إن كان هناك احترام كبير من الأبناء للآباء!!

نعم كان لوط كذلك - على ما يراه البعض إلى أن تزوج، ومنذ حلَّت في بيته امرأة جعلت توسوس في أذنه أنَّ عمَّه يسيء إليه، وإنَّ ثروته تتضاءل وتقلُّ بسبب هذه الشركة، وإنَّه خيرٌ له أن ينتصب على قدميه رجلاً ويعيش مستقلاً. لماذا يعيش طفلاً يتناول اللقمة يتفضَّل بها عليه عمَّه!

وكان لوط يداور امرأته في أول الأمر لكن طول شكايتها أثمر وجاء الوقت الذي ظهرت الخصومة فيه عنيفة مرة؟؟

ولابد أنَّ أبرام أدرك أساس القصة فلم يحاور لوطاً ولم يجادله. ولم يذكر له أن رعاته بدأوا بالإساءة، وإنَّ الآبار كلها هي آباره (آبار أبرام) وإن لوطاً لا يملك منها شيئاً. كلَّا. لم يقُل له شيئاً من

ذلك لأنه كان يعلم أنَّ امرأة خلف الموضوع وأنَّها وطَّنَت نفسها على أن تنفصل، فسهَّل المهمة لابن أخيه وقال له: لا تكن مخاصمة بيني وبينك، وبين رعاتي ورعاتك لأننا نحن أخوان. أليست كل الأرض قدامك؟ اعتزل عني. إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً

وهكذا «عزَّل» لوط من بيت عمّه!

وهل لوط هو الوحيد بين الرجال الذين أخرجتهم زوجاتهم من كنف آباء أو أعمام؟ ألسنا نرى المرأة تعمل هذا الأمر بكثير من حيلها فتنقسم البيوت الكبيرة ويحدث الشقاق بين العائلات وتبقى مرارة لا تذهب بها الأيام؟؟

على إنَّنا أيضاً نرى امرأة لوط مرة أخرى. نراها يوم اختار لنفسه دائرة الأردن ولسنا نجزم أنَّ زوجته كانت خلف الاختيار. ولكننا نؤكِّد أنَّها هي التي حرَّضته على نقل خيامه إلى مدينة سدوم!

لم يذهب لوط في أول الأمر إلى المدينة. إنَّه ارتحل شرقاً، وأقام في خيامه في المراعي وكانت المدينة قريبة. ورغبتْ الزوجة الشابة في أن تقيم في بيت في المدينة وظلَّت مع رجُلِها حتى لَانَ وترك حياة الخيام ونَقَلَ إلى سدوم!

وأبصرت في المدينة ما لم تبصره في البادية!

كان أهل سدوم أشراراً لدى الرب جداً!

كانوا سكِّيرين. كان الخمر طعامهم بل كان أهم عندهم من الطعام. ألسنا نلاحظ كيف أنَّ ابنتي لوط لم تنسيا أن تأخذا معهما كمية من الخمر عن هروب العائلة من سدوم؟

وكان الفِسق في سدوم شيئًا عادياً! كانوا كلّهم فاسقين من الحدث إلى الشيخ الأطفال والشيوخ مع الشبان انغمسوا في أوحال الفجور!

كانت لهم بالطبع ليالي حمراء!

ولا بد أنَّهم تفنَّنوا كما تتفنَّن المدن الشريرة في إقامة السهرات الحافلة بالرقص والمجون والفسق!

وسرَّ هذا زوجة لوط!

لقد تعلَّمت كيف تلبس ثياب المدينة!

وكيف تخطو خطوات بنات المدينة!

وكيف تشرب، وكيف ترقص، وكيف تتكلَّم، وكيف تخطو، كما كان بنات المدينة يعملن!

ولا بد أنَّها اشتركت في محافلهم ولذَّ لها أن تسير نظيرهم!

ما أجمل سدوم وأهل سدوم!

إنَّها مدينة النور مدينة المدنية!

إنَّ سكانها بشر لا بهائم!

إنَّها أسعد امرأة في سدوم!

ما أكثر الليالي التي كانت تلك الزوجة تحدِّث فيها نفسها حزينة على السنوات التي قضتها في البادية... إنَّها لن تحرم بناتها مما حُرِمَت هي منه. سَتُمَتِّعْهُن بكل متعات سدوم. لقد كانت فيها بقية من لغة البادية ومن عادات البادية وكان القوم يتغامزون عليها أحياناً. ولولا أنَّها كانت تحتلّ مكاناً ملحوظاً في المدينة بالنسبة لثروة زوجها لكانت موضوع سخرية تلك الطبقة الراقية. أما بناتها فلن

يتغامز عليهن أحدٌ، ولن يسخر منهن أحد. لقد بدأن الحياة في سدوم. «موضة» سدوم، وكلام سدوم ، وعادات سدوم وحفلات سدوم، ومجون سدوم، وكل ما في سدوم أصبح جزءاً من حياتهن!

وهل كان يمكن أن تعيش زوجة لوط بعيداً عن سدوم. إنَّها تحس أنَّ سدوم قد أصبحت حياتها ونورها!

جاء ملوك وحاربوا سدوم وأخذوا سكانها سبايا وسُبِيَ لوط وزوجته. وبلغ الأمر أبرام فقام لفوره وردَّ السبي. فهل فكَّر لوط في أن يترك سدوم، ويعود إلى الحياة مع عمِّه؟ كلَّا. إنَّه لم يفكِّر في شيء من ذلك لأنَّ زوجة لوط لا تستطيع أن تعيش بعيداً عن سدوم!

وطال الأمد عليها وولدت بنات زوَّجت عدداً منهن لرجال من سدوم. لقد أصبحت سدومية. كان لوط غير مستريح إلى الحياة في ذلك الوسط. كان يعذِّب نفسه البارة كل يوم. أمَّا زوجته وبناته فكن مستريحات جدَّاً إلى ذلك الوسط. إنَّك لا يمكن أن تلمح أي فرق بينهن وبين نساء سدوم!

وأخيراً!

وأخيراً صدر الحُكم على سدوم!

لقد امتلأ الكأس؟

سيقلب الله سدوم وعمورة وكل الدائرة لأنَّ شرَّها قد صعد إلى الله!

ووقف أبرام يناضل عن سدوم!

ربَّاه كيف تهلك سدوم كلَّها، فربَّما كان فيها عدد من الصالحين،

حاشا لك، أديان كل الارض لا يصنع عدلاً؟ هل تهلك البار مع الأثيم؟ ربما كان هناك خمسون باراً في المدينة! ويعلن الله أنَّه يعفو عن سدوم لو أنَّ فيها خمسين بار... بل أربعين بل ثلاثين... بل عشرين .. بل عشرة!

لا يوجد في سدوم عشرة أبرار!

وجاءت الملائكة إلى سدوم رحمة بلوط وبنيه!

واستقبل لوط الملاكين بكل احترام، ودعاهما إلى بيته وألحَّ عليهما جداً فمالا إليه ودخلا بيته فصنع لهما ضيافة!

لكنهما قبل أن يضطجعا سمعا حِسَّ رجال المدينة يحيطون بالبيت... كل الشعب. يطلبون من لوط طلبة قبيحة!!

ويخرج لوط إليهم ويحاول أن يهدئهم ونحن ننذهل من اللغة التي نطقت بها شفتاه. هل هذا لوط، ابن أخ إبراهيم، لوط البار هل يمكن أن يكون هو؟ إنَّه يعرض على القوم أشنع ما يعرض رجل وأب. والقوم يثورون طالبين الرجلين!!

يا للمساكين!

إنَّهم لم يعلموا أنَّ الرَّجلين ملاكان!

آه لو عرفوا!

إِذَنْ لجاءوا ساجدين وطلبوا الرحمة والعفو، ولكنهم لم يعرفوا!!

ويُصاب أهل المدينة بالعمى!

ويخبر الملاكان لوطًا بمصير المدينة!

سيحرق الله سدوم!

سيهلك كلَّ حيٍّ فيها!

ستتلاشى مدن الدائرة كلها!

وارتاع لوط!!

ولكن زوجته لم تضطرب!

وابنتاه لم تهتما!

وأصهاره الآخذون بناته لم يصدِّقوا، بل كان كمازح في أعينهم!!

وهو يعود إلى بيته يحاول أن يُعدَّ نفسه للهروب من سدوم!

ولكن زوجته تعطِّله!

كيف هذا يا رجل؟!

مَنْ قال لك إنَّ المدينة ستهلك؟

إنَّ كلام الرَّجلين قد يكون مجرد عبث!

هل يجوز أن نصدِّق كلامهما ونترك بيتنا ومالنا وصحبنا؟

هذا البيت الذي فرشته وأثَّثته فكان تحفة.. هل أتركه؟

هل أترك المدينة ذات الشوارع والطُرُقات والملاهي والملاعب والمتنزهات؟

هل أترك الصحاب والخلَّان؟

هل أترك الليالي الساهرة والحفلات الطروب؟

كلَّا. يا رجل لا يأتي هذا الأمر عاقل!

وكان لوط يقول إنَّه يصدِّق الرَّجلين ألم يتكلَّما بآسم الرَّب؟ ألم يجريا آية واضحة؟ ألم يصب القوم بالعمى فعجزوا عن أن يعرفوا

طريق الباب. إنَّهما صادقان وليس لنا إلَّا أن نهرب!

ولكن الزوجة لا تزال متشبِّثة بسدوم!

إنَّ قلبها في سدوم!

ولوط قد تزعزع يقينه، أو على الأقل اضطرب أمره. إنَّ الملاكين صادقان لكن الخسارة كبيرة!!

هذا والملاكان لا يكفَّان عن تعجيل لوط. فلما توانى أمسكا بيده ويد امرأته ويد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه خارج سدوم وقالا اُهرب لحياتك لا تنظر إلى ورائك!

وجرَّ لوط زوجته جرَّاً يبغي أن يصل إلى مدينة صوغر. فعند وصوله إلى صوغر سيبدأ الله أن ينزل كبريتاً وناراً على سدوم وعمورة!

وكانت زوجة لوط تسير متباطئة، إنَّها لا تريد أن تترك سدوم المحبوبة. ها هي تسير خلف زوجها متردِّدة. ها هي تخالف أمر الملاك وتنظر إلى الوراء، والحسرة تملأ قلبها. تنظر باكية على كنوزها التي تركتها في سدوم. وفي نظرتها صارت عمود ملح!!

هل كانت ضربة إلٰهية!

أم أنَّ الكبريت المتصاعد من الأرض أحرق جسمها فتحوَّلت إلى كتلة من الملح. وسواء كان هذا أو ذاك فقد صارت تلك المرأة التي كانت يوماً ما كوكب الصالونات عمود ملح!!!

وبعد سنين طويلة جاء السيد يلقي عظاته السامية على الناس المعرَّضين للنسيان فقال:

اذكروا اٰمرأة لوط!!

١٦
ملك ساليم

«وَمَلْكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ... وَكَانَ كَاهِنًا للهِ ٱلْعَلِيِّ... وَقَالَ: «مُبَارَكٌ أَبْرَامُ» (تكوين ١٤: ١٨)

هذا ملك يبرز فجأة وسط غموض التاريخ إذ بينما نحن نتابع حركات إبراهيم تبصره، ونؤخذ بروعته. فإنَّه يتقدَّم من أب المؤمنين، ويباركه ويعطيه إبراهيم عُشْرَاً من كل شيء!

رجل يبارِك إبراهيم!

ويقدِّم له إبراهيم العُشر!

رجلٌ كهذا لا بد أن يكون أعظم كثيراً من إبراهيم!!

لكن من هو؟

ومتى بدأ؟

ومتى انتهى؟

وأين أقام؟

هذه وألوف الأسئلة تقابلنا، ونحن نقف أمام تلك الشخصية الغامضة.. أسئلة تظلُّ بدون جواب، أو على الأقل بدون جواب حاسم!!

كل ما نعرفه أن اسمه ملكي صادق!

وإنَّه ملك ساليم!

وقد ظنَّ البعض أنَّ ساليم هذه هي أورشليم. وأنَّ ملكي

صادق كان ملكاً عليها!!

وأكَّد آخرون أنَّ ساليم ليست مدينة ولا مملكة. وإنَّما هي كلمة معناها السلام، وإن ملكي صادق اسم للرجل الغامض، وإنَّ معنى الاسم ملك السلام!

وإنَّه كاهن الله العلي!!

لكنَّه لم يتسلم الكهنوت من أب!

ولم يسلِّمه لابن!

وقد ذكر عنه كاتب كتاب «العبرانيين» حديثاً غريباً!

فهو ملكي صادق!

ملك ساليم!

كاهن الله العلي!

المترجَم أوَّلاً ملك البِر!

ثم أيضاً ملك ساليم أي ملك السلام!

بلا أب!

بلا أم!

بلا نَسَب!

لا بداءة أيام له!!

ولا نهاية حياة!!

بل هو يشبه بابن الله!!

هذا يبقى كاهناً إلى الأبد!!

وبسبب هذه الكلمات الغامضة تشعبت الآراء عنه. ولا بأس

أن نسمع هذه الآراء العجيبة!

فقد قالت جماعة منهم إنَّ ملكي صادق هو الروح القدس!!!

وقالت جماعة أخرى إنَّه واحد من ظهورات الله، وإنَّه المسيح في أعلى مراتبه، فهو الصورة الأولى التي جاء المسيح على منوالها!

وقالت جماعة ثالثة إنَّه ابن الله، الكلمة! وهو هو الذي ظَهَرَ لإبر اهيم، وأنبأهُ بميلاد إسحاق!

وقال أوريجانوس إنَّه كان ملاكًا!

وقال غيرهم إنَّه كان إنساناً أوجده الله قبل الخليقة من مادة روحية لا ترابية، وآخرون قالوا إنَّه أخنوخ أعاده الله إلى الأرض نور وهداية!!

أما آخرون فقالوا إنَّه سام بن نوح!

وآخرون قالوا إنَّه أيوب!

أما نحن نعتقد أنَّه كان ملكي صادق فقط!!! وإنَّه كان أحد المؤمنين بالله الذين حفظوا إيمانهم وسط ظلام الوثنية! وإنَّه كان كاهناً لله. لكن كهنوته لم يكن كهنوتاً على غرار كهنوت لاوي. فقد تسلَّمه رأساً من الله، لا من أب كاهن!

ولم يبدأ كهنوته في سنٍّ معينة ولم ينته في سنّ محددة!!

وكان كهنوته رمزاً لكهنوت أسمى وأجلّ وهو كهنوت ابن الله!!

ما أعظم ما أكرم الله ذلك الرَّجل الذي أشرق نور إيمانه وسط ظلمات الإلحاد! يكفي أنَّه كلما ذكرنا اسمه نذكر المسيح ابن الله!!

١٧
اختيار الزوجة

«مِنْ عِنْدِ ٱلرَّبِّ خَرَجَ ٱلْأَمْرُ... خُذْهَا وَٱذْهَبْ. فَلْتَكُنْ زَوْجَةً لِٱبْنِ سَيِّدِكَ، كَمَا تَكَلَّمَ ٱلرَّبُّ»»
(تكوين ٢٤: ٥٠ و٥١)

دَفَنَ الرجل الشيخ زوجتَهُ!

ودَفَنَ معها كثيرة من عواطف قلبه وآماله!

وتلفَّت حوله يبحث عمَّن كانت تملأ حياته!

وأحسَّ لأول مرة أنَّه غريب في الأرض!

كان إبرهيم غريباً، ولكنه لم يكن يحسّ بمرارة تلك الغُربة، عندما كانت سارة تقف إلى جانبه فقد كانت له عالم بأسره!

فلما ماتت رأى نفسه وحيداً!

وذكر إبرهيم ما كانت له سارة!

لقد كانت له أحب شخص. وأكرم زوجة وآمن رفيق وأقوى عضد وأبرك معين!

كان معنى اسمها أميرة أو سيدة وكانت سيدة بحق!

وفكَّر في أن يزوِّج ابنه المحبوب من سيدة!

لقد كانت بنات كنعان حُسَّان المنظر، ولكنه كان ينظر إلى أعمق من الجلد! فرأى فيهن دمامة الروح. ونفرت نفسه من فكرة

وجود إحداهن بجانب ابنه المحبوب إسحاق!

وهو يدعو إليه رئيس بيته أليعازر الدمشقي ويطلب أن يذهب إلى بيت أبيه ويختار زوجة لابنه من أهله وعشيرته - وكأنما خشي أنَّه يموت قبل أن تتم مهمة اختيار الزوجة فاستحلف عبده أن يفعل ذلك!

وأعدَّ العبد نفسه لرحلة طويلة من كنعان إلى حاران . أي من فلسطين إلى حدود العراق! وكانت الرحلة تتطلب استعداداً كبيراً. إذ تتطلب وجود قافلة يلتحق بها بجِماله، ووجود عدد كبير من الرجال ليتولُّوا الحراسة، وتمَّ كل هذا وأليعازر على رأس قافلته. واتَّجه شمالًا إلى بلاد سوريا واتَّجه شرقاً إلى الصحراء التي قضى فيها بولس سنتين في ما بعد. وقطع الصحراء بعد مشقَّة، ووصل إلى حاران عند البئر قُرب المساء! وأناخ جِماله المتعبة على الأرض ورفع صلاة لإلٰه إبرهيم وإلٰهه «أيُّها الرَّب إلٰه سيدي إبراهيم. ها أنا واقفٌ على عين الماء وبنات أهل المدينة خارجات ليستقين ماء فليكن أن الفتاة التي أقول لها أميلي جرَّتك لأشرب فتقول اشرب وأنا اسقي جِمالك أيضاً هي التي عيَّنتها لعبدك إسحاق وبها أعلم أنَّك صنعت لطفاً إلى سيدي».

ولم يطل انتظاره إذ أقبلت فتاة في ميعة الصبا، حسناء بل آية في الحُسن. وقد أكسبتها حياة البادية قوَّة وجمالًا. ونظر العبد إليها مأخوذة وهي تنزل درجات البئر وتملأ جرَّتها، وهي تلقي نظرة من جانب عينيها، إلى القافلة التي أناخت جِمالها. وصعدت من البئر واستدارت تيمّم بيتها. وإذا بعبد إبراهيم يتقدَّم منها ويطلب أن تمنحه قليلاً من الماء من جرَّتها. ولم يكن مثل هذا الطلب غريباً. فما

أكثر المسافرين الذين ألهبت الصحراء حلوقهم وهم يطلبون رشفة ماء تبرِّد لهيبم وقالت الفتاة وقد أحمرَّ وجهُها خفراً وحياء، اشرب ياسيدي. ثم ألقت نظرة أخرى إلى قافلته وقالت سأستقي لجِمالك أيضاً حتى تفرغ من الشرب!

ووقف العبد يراقب تلك الصبية الحسناء وهي تذهب إلى البئر وتملأ الجرَّة ثم تصبّها في حوض الشرب، وتعود مرة أخرى وثالثة ورابعة وتظل في هذا العمل حتى تشرب كل الجِمال!

كان يراقبها وفي قلبه مزيج من عواطف. فهو يعجب بالصبيّة، يعجب بشبابها وجمالها وأدبها وكمالها ورشاقتها ونشاطها وسخاء روحها، وهو يشتاق أن تكون تلك الصبيَّة سيدة بيت سيده. إنَّه يذكر سارة ويتحسَّر على أيامها العزّ الميامين. وعندما ماتت ظنَّ أنَّه لا يمكن أن توجد سيدة تحل محل السيدة لكنه يرى «سارة» أخرى. وهو يسأل تُرى أأنجح الرَّب طريقه؟!

وعندما فرغت الجِمال من الشرب تقدَّم العبد منها ووضع في يدها خاتماً من ذهب وسوارين من ذهب.

وعلمت الفتاة معني تقديم الهدية!

إنَّها ليست أُجرة الخدمة التي قدَّمتها

من العار أن تأخذ أجرة لخدمة الغريب!

إنَّ الرجل يخطبها لأحد المتصلين به!

وهو يقدِّم لها «شبْكة» ذات قيمة تدل على أنَّ الرجل متصل بأمراء. والقافلة التي معه تدل على أنَّ سادته قوم عظام!

والرجل نفسه، لقد مالت إليه. إنَّه لا يشبه العبيد الذين يمرون

بحاران من الغرب ومن الشمال. إنَّه لا يحلف ولا يسب ولا يقسو على ما معه ومن معه. وهو مهذب في كلامه ومتَّزن. وسبحت أفكار العذراء في بحر الخيال، تُرى من هو الأمير الجميل الذي سيكون عريسها. ولكنها تستيقظ من خيالها وهي تسمعه يقول: «بنت من أنت. أخبريني. هل في بيت أبيك مكان لنا لنبيت؟»

وكأني برفقة أدركت أنَّ ذلك العبد قادم من البلاد التي تضم قومها الذين نزحوا من زمن إلى كنعان فهو إن لم يكن منهم لا بد أن يعلم شيئاً عنهم ولذلك كان جوابها «أنا بنت بتوئيل ابن ملكة الذي ولدته لناحور»

وصمتت قليلاً ثم قالت وعندنا تبن وعلف كثير ومكان لتبيتوا أيضاً!

ورأت الصبية عجباً!

رأت ذلك العبد الشيخ يخرّ إلى الأرض ويسجد لله، وسمعته يقول: «مبارك الرَّب إله سيدي أبراهيم الذي لم يمنع لُطفه وحقه عن سيدي إذ كنت أنا في الطريق هداني الرَّب إلى بيت أخوة سيدي!»

وضاء وجه رفقة!

هذا إذن هو عبد إبراهيم!

إبراهيم العظيم الذي باركه الرب وأعطاه إسحاق ابناً في شيخوخته!

إسحاق إذن هو عريسي!

وكان انفعال الصبيَّة عظيماً. توالت الحوادث أمامها بسرعة

وكانت عجباً فوق عجب!

قافلة كبيرة من الجِمال والرجال!

رجل يطلب أن يشرب!

«شبكة» ذات قيمة كبيرة من الذهب!

صلاة خاشعة تكشف أنَّ القوم قومها وأهلها

ولم تدر رفقة إلَّا وهي تركض. تركت جرَّتها وأسرعت إلى بيت أبيها وحدثتهم وأنفاسها تتلاحق. وسمع أخوها القصة ورأى الهدية.. وكانت فيه طبيعة التاجر فأحسَّ أنَّ الرجل «زبون» لُقْطَة. فأسرع إليه وحيَّاه أكرم تحية، «أدخل يا مبارك الرب. لماذا تقف خارجاً وأنا قد هيَّأت البيت ومكان للجِمال.»

ودخل الرجل إلى البيت، وحلَّ عن الجِمال فأُعطى تبناً وعلفاً للجمال!

ثم تقدَّم لابان نفسه، زيادة في الإكرام ، فأعطى ماء لغسل رِجْلي عبد إبراهيم وأرجُل الرجال الذين معه، ومُدَّت الموائد!

كان القوم من سكان البادية، وكان إكرام الغريب من طبيعتهم. يدخل الغريب دون أن يُسأل من هو، ولا من أين أتى، ولا ماذا يريد. ويتمتع بالضيافة ثلاثة أيام.. ثم يتكلَّم

أما عبد إبراهيم فيخالف العُرف!

إنَّه يمتنع عن الأكل.. يقول: «كلَّا . لا آكل حتى أتكلَّم كلامي!

- تكلَّم!

وتكلَّم أليعازر فروى قصة سيِّده إبراهيم، وعظمة غناه، وتكلَّم عن ولادة إسحاق، وإنَّ إبراهيم أعطاهُ كل شيء! وتكلَّم

عن طلب إبراهيم ألَّا يأخذ زوجة لإسحاق من بنات الكنعانيين، «بل إلى بيت أبي تذهب وإلى عشيرتي وتأخذ زوجة لابني.. وتكلَّم عن مجيئه إلى عين الماء، وصلاته، والعلامة التي قدَّمها.. ومجيء رفقة، وما عملت معه، وذكر عن صلاته، فقال «خررت وسجدت للرب وباركت الرب إلٰه سيدى إبراهيم الذي هداني في طريق أمين لأخذ ابنة أخي سيدي لابنه» - وختم حديثه بالقول: «والآن إن كنتم تصنعون معروفة وأمانة إلى سيدي فأخبروني وإلَّا فأخبروني لأنصرف يميناً أو شمالاً»!!

كان العبد يعلم أنَّ القوم لا يمكن أن يطلقوه قبل أيام الضيافة، فكانت كلماته الأخيرة لا تعني إلَّا تشديداً في الطلب فهو يطلب أن يأخذ رفقة وإلَّا فإنه يرفض الضيافة!

وأجاب الأخ والأب: «من عند الرب خرج الأمر. ليس لنا نحن كلام فيه هوذا رفقة قدامك. خذها فلتكن زوجة لابن سيدك كما تكلَّم الرب!»

وسجد أليعازر الدمشقي مرة أخرى!!

ثم قام وأخرج آنية فضة وآنية ذهب وثياب وأعطاها لرفقة. وأعطى لأخيها وأمها تحفاً وكانت هداياه عربوناً لما ينتظر رفقة من ثروة. إنَّها لم تَرَ إسحاق، ولم ترَ ما عنده، ولكن أليعازر كشف لها في تلك الهدايا شيئاً عما يتميز بها عريسها. وهي تسر لذلك!

وكان عبد إبراهيم رجل عمل، فإنه في الصباح طلب أن يأخذ رفقة ويذهب. وحاول أخوها وأمها أن يؤخراه مدة، ولكنَّه أصرَّ على الذهاب وهو يقول: «لا تعوقوني والرب قد أنجح طريقي، اصرفوني لأذهب إلى سيدي». وهم يترددون في الإجابة وأخيراً

يضعون الأمر في يدي رفقة نفسها «ندعو الفتاة ونسألها شفاهاً» فدعوها وسألوها: «هل تذهبين مع هذا الرجل؟» فقالت: «أذهب!»

لقد رأينا الصَّبيَّة الجميلة المجتهدة المهذَّبة الكريمة الرشيقة الذكية.. وها نحن نرى المرأة الحازمة. تبدو لنا شخصيتها القوية في جوابها هذا: «أذهب»!!

وكانت رحلة طويلة وشاقة!

رفقة والفتيات على الجِمال!

وسارت الجِمال مخترقة صحراء دمشق!

ولكن الرجال كانوا يصفرون للجِمال ويغنون أغانيهم الجميلة التي تخفف من حِدَّةِ التوتر. وكذلك فتيات رفقة كن ينقرن على الدفوف ويرسلن أصواتهن الرقيقة تدوِّي في جوانب البرية!

وانتهت الرحلة!

وأبصرت رفقة من بعيد رجلاً يرفع عينيه نحو القافلة، وسألت العبد عن الرجل الماشي في الحقل للقائهم. وأجاب العبد: «إنَّه سيدى». فنزلت عن الجَمل وغطَّت وجهها احتراماً!

ووصل إسحاق وقدمت التحيات المعتادة وسمع إسحاق قصة اختيار الزوجة.. فأخذها إلى خباء أمه فصارت له زوجة.. وأحبَّها وتعزى إسحاق بعد موت أمه!

أحبَّ إسحاق رفقة!

وأكرمت رفقة إسحاق!

كانت المسافة كبيرة بينهما!

كان يكبر عنها بنحو ربع قرن!

كان في مرتبة أبيها!

على أن إسحاق كان ضعيف الشخصية. لقد كان ابن الشيخوخة. وعاش في حضن أمه، ورعاية أبيه وأليعازر. وعندما أرادوا أن يزوِّجوه لم يرسلوه ليختار الزوجة ولكنهم اختاروا له!

وكانت رفقة قوية الشخصية!

ولكنها استطاعت أن تسعد كزوجة. مكثت عشرين سنة بدون أولاد. فلما ولدت كان زوجها شيخاً. وكانت هي في ذروة الشباب!

لما كانت عاقراً صلَّى إسحاق من أجلها فحبلت!

وكان حَملها مؤلماً لها فسألت من الله. وقيل لها في بطنك أمَّتان، ومن أحشائك يفترق شعبان. شعب يقوى على شعب وكبير يُستَعبَد لصغير!

ولما ولدت جاء عيسو أحمر كفروة شعر، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدُعي اسمه «يعقوب»!

كان إسحاق ابن ستين.. وكانت رفقة في الخامسة والثلاثين!

ويدهشنا أنَّ العلاقة بين الزوجين لا يظهر لها أثر في سياق القصة. لقد ملأ الولدان كل فراغ في قلبي الزوجين!

أحبَّ إسحاق عيسو لأنَّه رأى فيه استكمالاً لشخصيته!

وأحبَّت رفقة يعقوب!

ولعلَّنا نندهش ونحن نرى المرأة ذات الشخصية القوية تسكب محبَّتها كلها على ذلك الصبي الأملس الذي يشبه البنات. وتحرم

منها عيسو الذي يحمل كل معاني الرجولة!

ولكنَّنا لا نندهش من أي عمل تأتيه المرأة!

وعاشت رفقة في بيت زوجها بعيدة عن زوجها وعن ابنها البكر، ملتصقة كل الالتصاق بابنها الآخر!

وتزوَّج عيسو من امرأتين كنعانيتين مرَّرتا حياة رفقة وصيَّرتها جحيماً حتى تمنَّت لنفسها الموت!

وكان من جراء ذلك أن بعدت الثقة بينها وبين ابنها. أم هل نقول إنَّها أبغضته؟

وشاخ إسحاق!

وتقدم في الأيام!

واظلمت عيناه!

وأحسَّ أنَّ أيامه قد اقتربت!

فدعا إليه ابنه عيسو!

واقتربت رفقة تتسمع ما عسى أن يقول الرجل الشيخ لابنه البكر. وهي تسمعه يقول إنَّ أيامه قد اقتربت، وإنَّه يخشى إنَّه لن يعيش طويلاً. وهو لذلك يطلب منه أن يخرج إلى البرية ليتصيد صيداً، ويصنع له طعاماً من كل ما يحب.. وبعد أن يأكل من صيد ابنه يسلِّمه بَرَكَة أبيه إبراهيم!

كان إسحاق يظنُّ أنَّ البَرَكَة تسلَّم ولم يعلم أنَّها يجب أيضاً أن تتسلَّم. إنَّها لا تُعطى فقط ولكنها ينبغي أن تُؤخذ، ينبغي أن يكون لها مكان في من يأخذها!

ولكن إسحاق كان يعني بالبَرَكة، بَرَكة للمكان الأول في

الأسرة. وهو ما تدعوه اليوم بولاية العهد!

وسمعت رفقة وارتاعت!

عيسو سيأخذ البَرَكة!

ويكون هو سيِّد البيت!

وتكون زوجتاه الآمرتين!!!

ويعقوب الحبيب يُحرم من البَرَكة!

كلَّا. إنَّ هذا لا يكون!!

وتبحث رفقة عن يعقوب، وتقصُّ له حديث البَرَكة، وتقول له إنَّ البركة من نصيبه هو، وإنَّ كل ما يجب عليه عمله حتى ينال البَرَكة أن يحضر لها جديين جيدين، وهي تصنع لأبيه الأطعمة التي يحبُّها، وهو يدخل بها إلى أبيه ليأكل ويباركه.

وتردَّد يعقوب!

إنَّه بالرغم من طبيعته الماكرة ينفر من استغلال عمى أبيه!

لكنه لا يواجه أمَّه بهذا السبب. بل يقول لها: «نعم إنَّه لا ينظرني لكن هبيه جسَّني ولم يجدني أشعر بالطبع. ألا أكون في عينيه كمتهاون وأجلب على نفسي لعنة لا بَرَكة!»

ولكن هذا العُذر لا يعطِّل مشروع رفقة. إنَّها تستطيع أن تتغلب على هذه العقبة. كلَّا لا تخف يا يعقوب لعْنَتُك عليَّ يا ابني. اسمع لقولي فقط واذهب خذ لي الجديين كما قلت..

وأعدَّت رفقة الطعام!

وكست عُنُق يعقوب ويديه بجلد الجدي!

وأرسلته مزوَّداً برضاها إلى أبيه!

وانتظرته حتى خرج وقد نال البَرَكة!

وظنَّت أنَّ المسألة انتهت!

كانت تعرف طبيعة الاستهانة بعيسو!

وكانت تظنُّ أنَّه لن يغضب كثيراً!

فلما جاء عيسو رأت أن الأمر غير ما قدَّرت!

غضب عيسو غضباً هائلاً!

وهدَّد بقتل يعقوب!

وهنا أدركت أنَّ التوفيق لم يحالفها تماماً.

ولكن رفقة لا تسلِّم!

فهي تدعو يعقوب وتحدِّثه حديث أخيه عيسو، وتتَّفق معه على ذهابه إلى بيت أخيها، وسترسل له بعد هدوء، غضب عيسو وتردّه!

وهي تذهب إلى إسحاق وتتحدّث معه عن زواج يعقوب وقد زاد عن الأربعين،

وتتحدث عن شرِّ زوجتي عيسو وشرِّ بنات كنعان، وتقترح أن يذهب يعقوب إلى بيت أخيها ليجد زوجة هناك!

وإسحاق يوافق ويدعو يعقوب ويتحدث إليه بشأن ذهابه إلى حاران ليتزوج!

ولكن رفقة تستعجل الأمر فترسل يعقوب بعجلة دون أن يعرف عيسو. ونحن نعرف ذلك من رؤيتنا يعقوب يضرب في الصحراء وحده. إن رحلته تحمل كل سمات الهارب لا الخاطب!!

ورفقة ترسله والحزن يقطع نياط قلبها!

وساعة أن ودَّعته ملأت الدموع عينيها، وأحسَّت في قلبها أنَّها لن تعيش حتى تراه. تُرى هل تم عليها قولها له.

«لَعْنَتُكَ عَلَيَّ يا ابني»!

وماتت رفقة قبل أن يعود يعقوب بوقت قصير. ماتت وآخر كلمة على فمها كانت على الأرجح: «ابني يعقوب!!»

١٨

أ- أسرة منقسمة

«فَأَحَبَّ إِسْحَاقُ عِيسُوَ... وَأَمَّا رِفْقَةُ فَكَانَتْ تُحِبُّ يَعْقُوبَ.» (تكوين ٢٥: ٢٨)

كان إسحاق رجلاً عظيماً، وقد تميَّز بأكمل الصفات. وكانت زوجته رفقة فضلى النساء وقد كانت أسرتها في أول الأمر نموذج الارتباط الزوجي السعيد!

وقد عاش الزوجان عشرين سنة بدون أولاد، لم نسمع في خلالها تذمُّر من رفقة ولم تحس قلقاً من إسحاق! ولم يكن عُقْم رفقة مثيراً لملل إسحاق، أو محرِّضا له على التماس النسل من زواج آخر!

ولكننا نراه يصلِّي!!

وفي صلاته لم يكن أنانياً فإنَّه لم يصلِّ لأجل نفسه بل لأجل رفقة امرأته!

واستجاب له الرَّب!

وولدت رفقة ولدين جاء أولهما أحمر كلّه كفروة شعر فدعوه عيسو، وجاء ثانيهما قابض بعقب أخيه، فدعا اسمه يعقوب!

وكبر الطفلان ونحن نراهما صبيين!

وقد تجلَّت فيهما مظاهر الاختلاف الطبيعي، الذي رأيناه في

جسميهما يوم وُلِدَا. فنما عيسو صبياً خشناً، كساه جسمه الأشعر بثوب مبكر من الرجولة. كان صوته خشناً وألعابه عنيفة. كان يصور الوحش ويضعه على مسافة منه، ويصوب نحوه سيناً أو رمحاً أو سهماً، مما كان يصنعه بيديه. وكان أبوه يراقبه، دون أن يدري، وكان إعجابه به عظيماً!

كان إسحاق رجل سلام. وكان يفضُّ مشاكله بدون عنف. كان في كل خلاف بينه وبين جيرانه ينزل عن حقه فيخسر قليلاً من المادة، ويربح الكثير من راحة الفكر وراحة الضمير، بل كانت المادة نفسها تأتيه طيعة. وكان جانب من سر ذلك السلام يعود إلى طبيعة جسم إسحاق الرقيق. نعم كان إسحاق رجلاً صالحًا، ممتلئاً محبة الله، ولكن جسمه الرقيق ساعده على اتِّباع رسالة السلام. ولا بد أن كثرة المظالم حرَّكت فيه مرة ومرة الرغبة في مقاومة ظالميه بالعنف. ولكن طبيعته الرقيقة كانت ترده إلى المسالمة والملاينة. فلما رأى في ابنه عيسو قوَّة البدن والطبيعة العنيفة أبصر فيه العنصر الذي كان ينقصه وسُرَّ لذلك كثيراً، وأحبَّ إسحاق عيسو!!

فلما امتدت الأيام بعيسو وصار شاباً تحوَّلت ألعابه الصبيانية إلى عمل، فصار صيَّاداً يحمل سلاحه، ويخرج إلى البرية ويستخلص الصيد من بين فكّي الوحش. وكانت مهامه تردي الأسد قتيلاً والنمر والذئب. وكان يعود حاملاً للغزلان. وأبصر أبوه صيده ورأي في ذلك الصيد القوَّة التي تملكها ذراعاه فكان إعجابه بابنه لا يعدله إعجاب. وأحبَّ إسحاق عيسو لأنّ في فمه صيداً!

أما يعقوب فكان جميلاً جداً وكان جسمه رقيقاً. في الحق كان يعقوب أقرب إلى صورة الفتاة منه إلى صورة الفتى. وكانت ألعابه

وهو صبي ألعاباً رقيقة لا تزيد عن تربية الدواجن والعناية بها مما كانت الفتيات يعملنه. وكانت ألعابه كلها في الخيمة بالقرب من أمّه، يبدأ النهار معها وينهيه بالنوم في حضنها!

ولا بُدّ أنَّ عيسو كان يختلف مع يعقوب كثيراً كما يختلف الأطفال والصبيان كثيراً في البيت. لا بُد أنَّ يعقوب مدَّ يده إلى بعض لعب عيسو، فأخذ بعضها وأتلف بعضها، ولا بُدّ أنَّ عيسو اقتصَّ من يعقوب، أو حاول أن يقتصّ منه، ولا بُدّ أنَّ يعقوب ركض يطلب الحماية عند أمه، فكانت تقف إلى جانبه، وتحميه بل كانت تلوم عيسو وتقتص منه. وكان إسحاق يراقب ذلك ويرى في مسلك رفقة ظلماً لعيسو، إذ كان الذنب في غالب الأوقات على يعقوب. ومع أنَّه كان لا يدخل في المنازعة إلَّا أنَّه كان يكشف لعيسو عن محبته، وكان فتوره بالنسبة ليعقوب يدفع الصبي أكثر إلى أحضان أمه!

ولما صار يعقوب شاباً سكن بجوار أمه، وكان يرعى الأغنام حول الخيمة. وكانت علاقته بأمِّه تزداد توثقاً، فأحبَّت رفقة يعقوب! لا نقول إنَّها كانت تبغض عيسو، ولكنها كانت تخشاه!

كان عيسو رجلاً بالمعنى المعروف في تلك الأوقات. كان ينظر إلى المرأة كمخلوق أقل منه. كان ينظر إليها كمخلوق ضعيف وكان يرى في الخشونة الرجولة الأكمل التي تسود على المرأة. وكان لخشونته لا يظهر شيئاً من المعاملة اللَّينة لأمِّه. فكانت تنظر فيه صورة الرجل المخيف. كان ابنها وقد خرج من أحشائها ولكنها لم تستطع أن تحبَّه كما تحب الأم ابنها!

وهكذا انقسمت العائلة!

وقف إسحاق وعيسو في صف!

ووقفت رفقة ويعقوب في صف آخر!

ولم يظن إسحاق ولم يخطر ببال رفقة أنَّ ذلك الانقسام سيتحكم في تاريخ الشابين، بل سيتحكم في تاريخ الأُمَّتين اللتين تأسستا، وإنَّ ذلك سيمتد لا إلى جيلٍ واحدٍ بل إلى أجيال مستمرة. ولكننا نحن الذين نعيش في الأيام الأخيرة نرى الآثار الدامية لذلك الانقسام.

ومن اللائق أن نذكر ذلك الدرس الذي تحدث للتاريخ بصوت مجلجل: «أيُّها الآباء والأمهات تحكَّموا في تصرفاتكم مع أولادكم، وأشعروهم بأنَّهم أولادكم، وأظهروا لهم تساوي عواطفكم. وإلَّا فالويل كل الويل للبيت المنقسم!!»

١٩

ب- السياسة والحيلة

«قَدْ جَاءَ أَخُوكَ بِمَكْرٍ وَأَخَذَ بَرَكَتَكَ». فَقَالَ: «أَلَا إِنَّ ٱسْمَهُ دُعِيَ يَعْقُوبَ، فَقَدْ تَعَقَّبَنِي ٱلْآنَ مَرَّتَيْنِ! أَخَذَ بَكُورِيَّتِي، وَهُوَذَا ٱلْآنَ قَدْ أَخَذَ بَرَكَتِي»
(تكوين ٢٧: ٣٥، ٣٦)

عيسو ويعقوب شابان كمل لهما الشباب!

وقد اقترب الاثنان من سن الأربعين!

لا يزال عيسو يعمل في خدمة حياته، فهو يخرج والظلام باق، ويعود في الظهيرة أو بعد ذلك!

أما يعقوب فهو في خيمته، تراقب عيناه قطيعه الصغير وهو رابض في المرعى المجاور!

شابان مختلفان كل الاختلاف!

شباب يعتمد على القوة وعلى السلاح وعلى الكدح والمغامرة!

وشباب يعيش على فراش الأحلام!

شباب يستخلص لقمته من أنياب الموت، وشباب ليس عليه إلَّا أن يمد يده ليتناول لقمته!

ولعلنا إذا خيّرنا نختار اللقمة السهلة. ولكننا في نفس الوقت نعجب باللقمة القاسية المُرَّة، ولا نملك إلَّا أن نثني على صاحبها!

عاد عيسو في أحد الأيام بعد مغامرة شديدة، وقد أنهكه التَّعب وأضناه الجوع. عاد فوجد أخاه يعقوب يفرغ من طبيخ عدس، ويشتم عيسو رائحة ذلك الطبيخ الذي يحسن أهل البادية طهيه، فيحسّ أنَّ حياته كلها معلَّقة به. فيتقدم إلى أخيه قائلاً: «أطعِمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت!»

وهنا تستيقظ مطامع يعقوب. يا طالما حسد أخاه. حسده وهو يراه مكتمل الرجولة، وحسده وهو يراه يتقلَّد السلاح ويخرج إلى البرية، وحسده وهو يراه يسير يدبُّ بقدميه على الأرض، ويواجه الصحراء بوجه صلب ونظرات صارمة، وحسده وهو يراه يعود حاملاً صيده الثمين، وحسده وهو يرى أباه يرحِّب بعودته ويثني عليه. نعم كان يحسده!

وكان يحسده قبل كل شيء لمكانه من الأسرة، فهو البِكر وله ولاية العهد. سيكون بعد انتقال أبيه رأس الأسرة وسيّدها، وسيكون رئيسها الروحي وكاهنها، وستكون المواعيد الإلٰهية له، المواعيد التي قُدِّمت لإبراهيم وانتقلت من إبراهيم إلى إسحاق. وستتم له البركة القائلة: «في نسلك تتبارك جميع قبائل الأرض». ومن نسله سيأتي ذاك الذي يسحق رأس الحية.

كم اشتعلت نار الغيرة في صدره!

عيسو البِكر لأنَّه ولد قبله بدقائق!

لقد كانا معاً في بطن واحدة، ولكن عيسو نال البكورية.. وهو فَقَدَ كل شيء، لأنه وُلِدَ بعد أخيه.. بدقائق !!!

ولطالما ثارت نفسه فيه، وودَّ لو أنَّه يستخلص البكورية، ولكنه كان يعود إلى صوابه سريعاً. عندما كان ينظر جسم أخيه القوي

وجسمه هو الضعيف!!

والآن واتته فرصة!

هوذا عيسو يقول: «قد أعييت!!

أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت!!»

وتحرَّك ذهن يعقوب سريعاً. هوذا عيسو معي، ماذا أستطيع أن أستخلص منه؟ وفي أقل من ثانية، استقر رأيه فقال لأخيه: «بعني اليوم بكوريتك!»

لو كان عيسو في حالته العادية لدَفَعَ يعقوب عنه دفعة شديدة. ولكنه كان في غاية الإعياء. إنَّه لا يفكر في شيء إلَّا في جسمه المُتعَب. إنَّ حياته معلَّقة في طبق الطبيخ. إنَّ رائحته تملأ خياشيمه، وترسل أبخرة إلى رأسه فيدور، ويتجرب أن ينقضَّ على الطعام فيلتهمه. ولكنه عزيز النفس فهو لا يتعدَّى على مِلك غيره. إنَّه مستعدٌ أن يدفع الثمن الذي يطلبه أخوه!

البكورية!؟

نعم إنَّها شيءٌ كبير جليل!

ولكن ما الذي يفيده من البكورية، وها هو يموت.. موت جوعاً. إنَّه يقول: «ها أنا ماضٍ إلى الموت فلماذا لي بكورية؟»

بل ماذا أفيد من البكورية؟

لا شيء.. نعم لا شيء!!

فهل هناك غنم في الرئاسة الروحية؟

وهل أنال صيداً من تقديم الذبيحة؟

وما الذي يجديني إذا نال أحفادي المواعيد؟

وهل يؤثر في نفسي أن يتبارك في نسلي جميع قبائل الأرض؟

ونسل المرأة الذي سيسحق رأس الحية هل يهمني إن كان سيأتي مِنِّي أم من غيري؟

كلَّا. إنِّي لا أنال غنماً حقيقياً من البكورية!

إنَّ طبقاً من العدس لأفضل عندي من مئة بكورية!!

أعطني العدس يا يعقوب وخذ هذه البكورية حلالاً لك!

ولكن يعقوب الماكر لا يصدِّق أخاه. إنَّ يعقوب لا يعرف الصدق ولا الكلمة الواحدة. إنَّه لا يصدِّق أنَّ عيسو يقصد ما يقول. فهو يقول: «هل أنت جادٌ حقّاً؟ إذن احلف، لي احلف أنَّ البكورية لي.» ويتقدَّم عيسو ويقول: «ناولني طبق العدس وخذ عشرة أقسام، إنَّ البكورية لك. إنني لا أتمسك بها. إنَّني لا أعتبرها شيئاً ذا قيمة. إنّي احتقرها. اعطني العدس وخذها!»

وهكذا باع عيسو بكوريته بطبق من العدس!!!

***

علم إسحاق بما حدث بين ولديه، فلم يعترف به بل ظلَّ يعتبر عيسو البكر. على أنَّ عيسو كان قد فقد البكورية فعلاً. لا لأنَّ يعقوب تمسَّك بالصفقة لكن لأن عيسو احتقرها!

وقد ظهر أثر احتقاره لها من مسلكه الديني في كل أموره. إنَّنا لم نره يوماً يصلِّي، ولم نسمع أنَّه قدَّم ذبيحة. ولم يذكر يوما وعداً من مواعيد الله. بل قد أيَّد بيعه للبكورية في زواجه، إذ لم يستشر والديه في الزواج. ولم يطلب زوجة من أهله كما تزوَّج أبوه. وقد انقطعت بزواجه صلاته بأهله. والربط الروحية التي كانت تجمعه

بأبيه وأمه انحلَّت وضاعت!

وكان مسلك زوجاته سبباً في تنغيص حياته وحياة إسحاق ورفقة!!

لقد احتقر البكورية عندما باعها فخطا الخطوة الأولى نحو فقدانها!

واحتقر البكورية عندما تزوَّج من الوثنيات فخطا الخطوة الثانية نحو ذلك الفقدان!

وامتدت الأيام بإسحاق ورفقة وابنيهما. هوذا إسحاق يبلغ الشيخوخة مبكرة. غالباً بسبب عينيه. إنَّه يخشى أن يموت قبل أن يورث «بِكْره» عيسو بركة أبيه إبراهيم. إذن ليدعه إليه وليطلب منه أن يتقلَّد سلاحه ويخرج إلى البرية ويصطاد صيداً يصنع منه طعاماً لأبيه حتى إذا أكل من صيد ابنه ورضى عليه فاض قلبه ببركة إبراهيم يسبغها عليه.

ألقى إسحاق تلك الكلمات ورفع بها عن صدره ثقلاً أوقره. سيبارك عيسو قبل أن يموت!

وخرج عيسو مبتهجاً ليعدَّ لأبيه الطعام المشتهي. وسينال بركة «البِكر» وهكذا يسترد ما سلبه بالمكر والخديعة أخوه يعقوب. وبدا كأن يعقوب سيخسر الجولة!

ولكن رفقة سمعت كلام إسحاق وخشيت أن تضيع البركة على ابنها المحبوب يعقوب، الابن الذي عاش في حضنها طفلاً وصبياً وشاباً ورجلاً! الابن الذي وعد ألَّا يتزوج إلَّا من فتاة ترضاها.. وفوق الكل، الابن الذي سبق الله فأعلن أنَّه سيسود على أخيه.

لقد قال الله يوم تزاحم الولدان في بطنها «**فِي بَطْنِكِ أُمَّتَانِ، وَمِنْ أَحْشَائِكِ يَفْتَرِقُ شَعْبَانِ: شَعْبٌ يَقْوَى عَلَى شَعْبٍ، وَكَبِيرٌ يُسْتَعْبَدُ لِصَغِيرٍ**»!

لكن الأمر يكاد يسير بالعكس. فهوذا عيسو يوشك أن ينال البركة. إذن ينبغي أن تعمل شيئاً لتحقق وعد الله. ولو أنَّ رفقة كانت أكثر إيماناً لتركت له ترتيب الأمور!

إنَّ خطأ الناس الأكبر قائمٌ في أنَّهم لا يصبرون للعناية. إنَّهم يستعجلون طريقهم لنوال البركة، ويستعملون في ذلك وسائلهم الآثمة. ولعمري، كيف يمكن أن ندعو بركة ما نأخذه بطريق الشر والمعصية؟!

وأسرعت رفقة إلى يعقوب وقصَّت له قصة أبيه وأخيه، ورتَّبت أن تُعِدَّ طعاماً لأبيه وأن يتنكر هو في ثياب أخيه حتى يأخذ البركة - وتردَّد يعقوب، لا لأن ضميره كان حيًّا يقظاً، لكن لأنَّه خشي أن يُكْتَشَف، فهو أملس وعيسو أشعر. ولكن هذه المشكلة لا تقف بدون حل أمام رفقة، فهي تغطي يدي يعقوب وعنقه بجلود الجديين اللذين ذبحتهما، ثم تلبسه ثياب عيسو الفاخرة وتدفع به وبالطعام إلى حيث إسحاق. ويتكلَّم يعقوب فيدعو أباه إلى مائدته ويسأل إسحاق، من هذا الذي يدعوه، فيجيبه يعقوب «أنا ٱبنك عيسو». ويندهل إسحاق لأنَّ الصوت لا يشبه بالمرَّة صوت عيسو بل هو فعلاً صوت يعقوب. يطلب إسحاق من يعقوب أن يقترب منه فيجسَّه ويحسّ بجسمه الأشعر، فيقول متردداً: «عجباً الصوت صوت يعقوب. ولكن اليدين يدا عيسو!»

ويأكل إسحاق من الطعام ويشرب، وتأتي الساعة التي يبارك

فيها ابنه. ولكنه لا يزال متردِّداً. إنَّ هناك شيئاً من الشك يساوره. لقد لمس يديه وعنقه واتَّضح أنَّه عيسو. لكنه لا يزال يحسّ بشيء من القلق، لا يعلم سرَّه، ولذلك يدعوه ليقبِّله فيقترب منه يعقوب ويشتم إسحاق رائحة ثياب عيسو، وإذ ذاك تنطق شفتاه بالبركة «**اُنْظُرْ! رَائِحَةُ ٱبْنِي كَرَائِحَةِ حَقْلٍ قَدْ بَارَكَهُ ٱلرَّبُّ. فَلْيُعْطِكَ ٱللهُ مِنْ نَدَى ٱلسَّمَاءِ وَمِنْ دَسَمِ ٱلْأَرْضِ. وَكَثْرَةَ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ. لِيُسْتَعْبَدْ لَكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدْ لَكَ قَبَائِلُ. كُنْ سَيِّدًا لِإِخْوَتِكَ، وَلْيَسْجُدْ لَكَ بَنُو أُمِّكَ. لِيَكُنْ لَاعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ**»

كان يعقوب يسمع هذه الكلمات وقد تنازعته عاطفتان، عاطفة الطرب وعاطفة الاضطراب. ولما انتهى أبوه خرج وقد تنازعه الخوف والبهجة!

ولم يبتعد يعقوب كثيراً عن المكان، حتى أقبل عيسو يحمل الطعام إلى أبيه ويدعوه: «ليقم أبي ويأكل من صيد ابنه حتى تباركني نفسك» وسأل إسحاق بقلق: «من أنت؟» فأجاب: «أنا ٱبنك بكرك عيسو!» نعم. هذا هو عيسو، هذا صوته، وهذه نغمة كلامه. أما الآخر فمن هو..؟

كان ارتعاد إسحاق عظيماً جداً، وقال: «فمن هو الذي اصطاد صيداً وأتى به إليَّ فأكلت من الكل قبل أن تجيء وباركته. نعم ويكون مباركاً!»

لقد كانت صدمة قاسية لعيسو!

لقد احتمل بيع البكورية سنين هذا عددها. كان صغيراً عندما باعها. فلما كبر وأدرك حماقة ما أتى حاول أن يستردها!

إنَّه يقول لأبيه: «أنا ابنك بكرك عيسو!»

إنَّه يطلب بركة إبراهيم!

ولكن هوذا أخوه يعقوب يأتي بمكر للمرة الثانية ويسلبه بركته!

صرخ عيسو صرخة عظيمة ومُرَّة جداً وقال لأبيه: «باركني أنا أيضاً يا أبي!» وقال إسحاق متأسِّفا: «قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك!»

وأجاب عيسو: «إنَّه ليس أخي إنَّه عدوِّي، إنَّه نظير اسمه الشرير قد تعقَّبني الآن مرتين، أخذ بكوريتي وهوذا الآن قد أخذ بركتي!»

وبكى عيسو بدموع مرة. بكي كما لم يبكِ من قبل. ثم قال: «أما أبقيت لي بركة. أليست لديك بركة واحدة بعد. باركني أنا أيضاً يا أبي». ورفع عيسو صوته وبكى؟

وتحدَّث إسحاق إليه فقال: «**هُوَذَا بِلَا دَسَمِ ٱلْأَرْضِ يَكُونُ مَسْكَنُكَ، وَبِلَا نَدَى ٱلسَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ. وَبِسَيْفِكَ تَعِيشُ، وَلِأَخِيكَ تُسْتَعْبَدُ، وَلَكِنْ يَكُونُ حِينَمَا تَجْمَحُ أَنَّكَ تُكَسِّرُ نِيرَهُ عَنْ عُنُقِكَ**».

- ما هذا يا أبي ماهذا، هل هذا كل ما تستطيع أن تعطيه لي. مهلاً يا يعقوب مهلاً. لا تخدعنك نفسك. إنني لن أتركك تتذوق حلاوة نصرك. سأقتلك، نعم سأقتلك. افرح بالبكورية وافرح بالبركة. ولكن لا تفرح طويلاً فلقد قربت مناحة أبي. سأبقى عليك إكراماً له. وعندما ينطلق إلى قومه ستنطلق أنت معه. سأقتلك يوم يموت أبي!!

٢٠

ج- بيت إيل

فَٱسْتَيْقَظَ يَعْقُوبُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: «حَقًّا إِنَّ ٱلرَّبَّ فِي هٰذَا ٱلْمَكَانِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ!». وَخَافَ وَقَالَ: «مَا أَرْهَبَ هٰذَا ٱلْمَكَانَ! مَا هٰذَا إِلَّا بَيْتُ ٱللهِ، وَهٰذَا بَابُ ٱلسَّمَاءِ»
(تكوين ٢٨: ١٦، ١٧)

لم يسمع كلمات التهديد التي نطقت بها شفتا عيسو إلَّا النفر القليل، بل لقد كان يظنُّ أنَّ أحداً ما لم يسمعه، لأنَّه همس بتلك الكلمات في قلبه. على أنَّ أحدهم ولا نعرف من هو، نقل «نيَّة» عيسو إلى رفقة، فانزعجت واضطرب أمرها، وذكرت تلك القصة القديمة التي توارثها الأبناء عن الآباء، قصة هابيل الذي قتله أخوه قايين. وصوَّر لها الخوف ابنها يعقوب وقد مزَّقت صدره سهام أخيه، وصوَّر لها الخوف أنَّها فقدت ولديها في يوم واحد. فأرسلت ودعت يعقوب وقالت له: «هوذا عيسو أخوك مُتَسَلٍّ من جهتك بأنه يقتلك. فالآن يا ابني اسمع لقولي وقم اهرب إلى أخي لابان إلى حاران، وأقم عنده أياماً قليلة حتى يرتد سخط أخيك، حتى يرتد غضب أخيك عنك وينسى ما صنعت به. ثم أُرسل فآخذك من هناك. لماذا أعدم اثنيكما في يوم واحد»

مسكينة رفقة!

لقد دبَّرت تدبيرها بإحكام واستخلصت البركة ليعقوب،

وكان سرورها لذلك طاغياً ولكن ها هي ذا تدفع الثمن دموعاً ودماً!

لقد كانت تظنُّ أنَّ قلبها لن يستريح حتى ترى البركة على رأس يعقوب. وها هي قد نالت تلك الأمنية ولكن قلبها مذ ذلك الوقت لم يعرف طعم الراحة!

وبدلاً من أن تسأل الله كما فعلت في القديم، سألت نفسها ماذا أعمل وكيف أعمل ورتَّبت «بحكمتها» و«مهارتها» سبيل خلاصها من ورطتها، وكان تدبيرها وبالاً عليها، فقد أرسلت ابنها إلى أيام قليلة حتى يرتد غضب أخيه، ولكنها ماتت، وابنها في أرض الغربة فلم تره منذ ودَّعته.

الله وحده يعلم ما اعتلج في قلبها من سعير، وما التهبت في صدرها من نيران!

الله وحده يعلم عدد الليالي التي لم تعرف فيها طعم النوم، ولم يستقر جنبها على فراش!

الله وحده يعلم عمَّا أقض مضجعها، وقسَّى وسادتها، وفرش بساطاً من شوك تحت جسدها، ذلك هو الضمير الثائر!

كم من ليلة ثار ذلك الضمير فبكت وطال نشيجها، وهي تقول: «أنا السبب، لقد قذفت بابني من حالق!»

وعندما وصلت إلى حافة النهر كانت عيناها تتطلعان إلى الغرب علَّها تبصر شبح ذلك الابن الذي شرَّدته هي ولكن عينيها اظلمتا واختفى العالم كله أمامها إلى الأبد دون أن تتزوَّد بنظرة واحدة من ذلك الابن!

لم ترَ رفقة شيئاً من هذا يوم أشارت على ابنها بالهرب، ولكن كل هذا جاء عليها فيما بعد!

***

لكن كيف ترسل رفقة يعقوب إلى حاران دون أن تثير شكوك عيسو؟ ها هي تعود مرة أخرى إلى طبيعتها الماكرة. فتشغل حيلتها.. وتنجح!

ذهبت إلى إسحاق وأضافت شكوى أخرى إلى شكاواها القديمة من زوجتي عيسو يهوديت ابنة بيري الحثي وبسمة ابنة إيلون الحثي. لقد كانتا مرارة نفس لإسحاق ورفقة. وماذا ينتظر أن تكون زوجات من بنات الحثيين؟

وقالت رفقة لإسحاق إنَّ الوقت قد حان لزواج يعقوب. في الحق أنَّه كان ينبغي أن يتزوج من مدَّة لأن عُمره قد زاد عن الأربعين ولكن رفقة لا تقبل أن يتزوج يعقوب من بنات حث. إنَّها تتمنَّى لنفسها الموت قبل أن ترى حثّية زوجة له. وإسحاق متَّفق مع رفقة في هذا، وهو يدرك أنَّ الله قد أمر بالبركة ليعقوب، فيدعوه إليه ويباركه ويوصيه ألَّا يأخذ زوجة من بنات كنعان، بل يرسله إلى بيت بتوئيل أبي أمه ليأخذ زوجة من هناك من بنات لابان أخي رفقة «والله القدير يباركك ويجعلك مثمرة ويكثرك فتكون جمهوراً من الشعوب ويعطيك بركة إبراهيم لك ولنسلك معك لترث أرض غربتك التي أعطاها الله لإبراهيم»

ولقد كنا ننتظر أن يذهب يعقوب في قافلة من الجِمال ومعه العبيد كما فعل إبراهيم عندما أرسل عبده ليُحضِر زوجة إسحاق. على أنَّ الأمر لم يكن كذلك فإنَّنا نرى يعقوب يسير وحده يقطع

تلك الصحراء بدون رفيق وبدون شيء إلَّا العصا التي عبر الأردن بها. ولقد يساورنا الشَّك في صدق الرواية ولكننا نلمح في الأمر أصبع رفقة. إنَّها قلقة على يعقوب وتخشى أنَّ عيسو ينطلق خلفه ويصيب منه مقتلاً. فهي تتظاهر بإعداد الرحلة في الوقت الذي ينطلق فيه يعقوب بمفرده حتى إذا ما تنبَّه عيسو للأمر كان يعقوب قد نجا.

***

وها نحن نرى يعقوب يسير وحيداً في تلك الفلاة. ذلك الرجل الذي عاش في حضن أمه حتى كاد يصل إلى الشيخوخة، يسير وحده في برية قفر بلا أنيس ولا حارس!

ها هي الشمس تميل إلى الغروب!!

وها هو يلقي نظرة إلى كل جهة فلا يرى إلَّا الرمال الصفراء تمتد إلى مدى النظر - يا له من مكان مخيف!! هل يمكن أن يسلِّم نفسه إلى ليل الصحراء؟ هل يمكن أن يطمئن له جنبٌ على رمالها وصخورها؟ هل يمكن أن تغمض له عين وسط حيواناتها ووحوشها؟ ماذا يعمل إذا انقضَّ عليه في الليل ذئبٌ أو نمرٌ أو أسدٌ؟ بل ماذا يعمل إذا هجمت عليه حيَّة من حيات الصحراء؟

ولا شك أنَّ مخاوفه وجدت لها من ثورة ضميره سنداً. إنَّه يذكر أيامه في بيت أبيه، ويذكر أنَّه كان يمكن أن يعيش كأسعد ما يكون إنسان لو أنَّه سلك في طريق مستقيم. إنَّه يذكر كيف سلب أخاه بكوريته، وكيف خدع أباه وسلب أخاه بركته. والآن ها هو يخرج وحيداً بلا بكورية وبلا بركة، وها هو يبحث في الصحراء عن مكان يسند فيه رأسه، فلا يجد!

لكنه بعد طول تحديق، يبصر كهفاً صغيراً فيقصده ويمهِّد الرمال التي فيه، ويضع حجراً تحت رأسه، ويسجد، ربما لأول مرة في حياته، ويطلب حراسة الله. لقد كان إلى الأمس القريب يستند على حيلته وسياسته، ولكنه يبدأ منذ تلك الليلة يرى كائناً أعظم من كلِّ حيلةٍ، كائناً يدبِّر كل شيء ويرعى كلَّ شيء. لقد دفعته ضيقة نفسه إلى الله!

وفي هدأة الليل استيقظت روح يعقوب. كان جسمه مثقلاً تحت قوة النعاس، ولكن روحه استيقظت. وهو يلقي نظره إلى الصحراء ويندهش. إنَّها لم تعد تلك الصحراء المظلمة الموحشة التي رآها ساعة أن طرح جسمه على رمالها. لقد بدت قصراً متَّسع الأرجاء اكتست أرضه بالذهب، وتناثرت حبات الجوهر هنا وهناك ترسل بريقاً ولمعاناً. وغمر الجو نورٌ اختلف كل الاختلاف عن كل نور أبصره وسمع أصواتاً فالتفت أمامه وإذا فِرَق من حرس نوراني يحيط به، وإذا سلّم مضيء يستند على الأرض ويمتد إلى السماء وقد تغطّى ذلك السلم بأجنحة الملائكة وهي تصعد وتنزل. وعلى رأس السلم كان أعظم ضوء وإذا السيِّد نفسه، وهوذا يتكلَّم مع يعقوب وهذه هي الكلمات التي سمعها «أَنَا ٱلرَّبُّ إِلٰهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ وَإِلٰهُ إِسْحَاقَ. ٱلْأَرْضُ ٱلَّتِي أَنْتَ مُضْطَجِعٌ عَلَيْهَا أُعْطِيهَا لَكَ وَلِنَسْلِكَ. وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَتُرَابِ ٱلْأَرْضِ، وَتَمْتَدُّ غَرْبًا وَشَرْقًا وَشَمَالًا وَجَنُوبًا، وَيَتَبَارَكُ فِيكَ وَفِي نَسْلِكَ جَمِيعُ قَبَائِلِ ٱلْأَرْضِ. وَهَا أَنَا مَعَكَ، وَأَحْفَظُكَ حَيْثُمَا تَذْهَبُ، وَأَرُدُّكَ إِلَى هٰذِهِ ٱلْأَرْضِ، لِأَنِّي لَا أَتْرُكُكَ حَتَّى أَفْعَلَ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ».

وفتح يعقوب عينيه ولكنه لم يرَ ما رأته روحه. لقد أبصر

الصحراء المظلمة الموحشة. على أنَّ صوت الله ظل يرنُّ في أذنيه. فقال، حقاً إنَّ الرَّب في هذا المكان وأنا لم أعلم. وملأه خوف طاغ فقال: «ما أرهب هذا المكان. ما هذا إلَّا بيت الله وهذا باب السماء!»

وفي الصباح أخذ يعقوب الحَجَر الذي كان تحت رأسه وأقامه عموداً وصبَّ زيتاً على رأسه ودعا اسم ذلك المكان «بيت إيل».

ونذر يعقوب نذراً، إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائرٌ فيه وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبي يكون الرب لي إلهاً، وهذا الحَجَر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطيني فإنِّي أعشِّره!

ومن اللائق أن نقف قليلاً في بيت إيل،

هناك ألقى يعقوب نذره!

ولما عاد يعقوب من حاران إلى كنعان حدثت معه أحداث. فقد طارده خاله وكاد يفتك به لولا أنَّ الله ظهر له في الطريق وحذَّره من إيذاء يعقوب.

ومرَّت به ليلة المصارعة مع الملاك وكسر حُقَّ فخذه!

وجاء عيسو ورجاله الأربعمئة!

ثم حدثت مأساة «دينة» وانتقام شمعون ولاوي من شكيم وحمور!

وهنا يُسمع صوت الله «قم اصعد إلى بيت إيل وأقم هناك واصنع هناك مذبحاً لله الذي ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك.» وها هو يذهب ويجدِّد عهوده مع الله.

ومن ذلك الوقت أصبح بيت إيل مزار يعقوب، يحجُّ إليه كلما لمسته ضيقة أو اجتاز في طريق تجربة

ولم ينسَ يعقوب بيت إيل. إنَّه يتحدث عنه في آخر أيامه فيقول ليوسف: «الله القادر على كل شيء ظهر لي في لوز في أرض كنعان وباركني وقال لي: ها أنا أجعلك مثمراً وأكثرك وأجعلك جمهوراً من الأمم وأعطي نسلك هذه الأرض من بعدك مُلكاً أبدياً»

لقد كانت الوسادة الحَجَرية في بيت إيل!

وفي بيت إيل كانت أيضاً الرؤيا السماوية!!

٢١
د- يعقوب في أرض الغربة
الزوجتان

«فَأَعْطَاهُ رَاحِيلَ ٱبْنَتَهُ زَوْجَةً لَهُ.
وَأَحَبَّ ... رَاحِيلَ أَكْثَرَ مِنْ لَئِئَةَ.»
(تكوين ٢٩: ٢٨، ٣٠)

كان حلم بيت إيل أكثر من حلم ليعقوب!

كان حقيقة بل أكثر من حقيقة!

لقد خرج من كنعان إلى مصير مجهول. يملأ صدره مزيج من غمٍّ ومن خيبة ومن قلق. وكان فكره نهب وساوس جعلته يترنَّح في سبيله المظلم!

كانت الظلمات تحيط به!

لقد التمس البكورية والبركة... ونالها. ولكن ما هي البكورية وماهي البركة لرجل يضرب في الصحراء ولا يعلم له مستقراً؟

وعندما اضطجع على الأرض وأسند رأسه على الحجر كان يأسه قد بلغ أقصاه!

فلما ظهر له الله وتحدَّث إليه عاشت نفسه، وانقشعت ظُلُماته واكتشف طريقه وتجلَّى الرجاء قوياً بهيًّا أمامه!

فقام في الصباح غيره بالأمس!

وسار في طريقه وقد اكتسى وجهه بالنور!

بل لقد قيل إنَّه كان يغنِّي بعض تلك الأغاني التي كان ينطق بها وهو يرعى أغنامه في خيام إسحاق!

واقترب من العمران!

وأبصر عدداً من الرعاة حول بئر عليها غطاء كبير!

ها قد وصل أخيراً إلى حاران!

وهو يسأل عن لابان بن ناحور فيجيبه الرعاة أنَّهم يعرفونه، بل يبدو من إجابتهم أنَّه رجل له مكانة الصدارة، وإنَّ البئر له ولبنيه. ويقولون: إنَّ ابنته راحيل قادمة على مسافة من الغنم!

كانت العذارى في ذلك الوقت يعملن في رعاية الغنم ولو كنَّ من بنات الأمراء. ولذلك لم يكن غريباً أن تأتي راحيل ابنة لابان لترعى غنم أبيها. وقد رأينا قبل ذلك رفقة تعمل نفس العمل!

واقتربت راحيل من المكان، وأبصرها يعقوب فوقعت في قلبه، وأحبَّها من النظرة الأولى. كانت عذراء شابة وجميلة وكان قلبه يتعطش إلى الحبِّ، إذ كان قد حُرِمَ من كل حنان. فحالما أبصر راحيل رأى فيها كل آمال حبّه، الحُبّ الذي يوجد في قلب القريب والحبيب.

وككل حبيب أراد أن يعلن المحبوبة قلبه إنَّه ذو خلق وذو قوة . فأسرع يرفع غطاء البئر الكبير ويروي أغنام لابان ويحدِّث راحيل أنَّه ابن عمتها ومن ثم يقبِّلها وهو يبكي إذ غلبته المسرة لما لقيه من التوفيق بعد طول سفره وتعبه.

طفح السرور عَلَيَّ حتى أنَّه من فرط ما قد سرَّني أبكاني

ووقع يعقوب في نفس راحيل وقعاً طيباً ولعلَّ قلبها كان قد بدأ يتفتح للحبِّ فوجدت في ذلك الرجل القوي الذي رفع غطاء البئر وحده، الرجل الكريم الذي بادر إلى معاونتها في سقي الغنم، وجدت فيه رجل أحلامها!

ما أعجب الحب!

يعقوب الذي عاش أقرب إلى الفتاة منه إلى الفتي يوليه الحب قوة أربعة رجال، فيرفع الحَجَر وحده، ويبعث فيه الجسارة وهو الحيّي فيتقدم إلى راحيل ويقبِّلها، ويستطيع أن يغزو ذلك القلب المتفتِّح للحب في وقت قصير!

وراحيل، وقد ملأ الحب قلبها، أسرعت إلى أبيها وحدَّثته حديث ابن رفقة فركض وعانقه وقبَّله وأتى به إلى بيته. كانت قد مرَّت أزيد من ستين سنة منذ خرجت أخته عروساً لإسحاق ولم يرها بالطبع طول تلك المدة والآن ها هو يرى ابنها وقد أربى على الأربعين!

ولا بد أنَّهما تحدَّثا طويلاً!

فتحدَّثا عن ولادة التوأمين!

وتحدَّثا عن عمل حياتهما!

وقصَّ يعقوب لخاله قصة البكورية

وقصة البركة!

وقصة هروبه!

وقصة الحلم!

ولا بُد أنَّ لابان، وكان نظير أخته ونظير يعقوب رجل حيلة ومكر، لا بُد أنَّه أُعجِب بيعقوب وأثنى على ذكائه وسرعة بديهته!

وعاش يعقوب شهراً في بيت لابان يرعى أغنامه. وقد سُرَّ لابان بخدمته وأدرك قيمتها ورغب في أن يبقيه عنده!

وقال لابان ليعقوب: «ألأنَّك أخي تخدمني مجاناً؟ أخبِرني ما أُجرتُك؟! ألعله كان كثير الحساسية فلم يَقبل أن يستغل ابن أخته، ويستغل ضيافته، أم أنَّه على الأرجح خشي أن يعقوب سيفلت منه قريباً ولذلك التمس طريق تقييده إليه!؟؟

ولم يسرع يعقوب في الجواب!

إنَّه يذكر لخاله أنَّه ابنه، وأن الابن لا يخدم أباه بأجر، وأنه يفخر أن يخدم خاله وأنَّه وأنَّه .. مما نعلمه في بلادنا من الكرم الكلامي!

على أنَّ لابان أصرَّ أن يعيِّن أجرة ليعقوب فإنَّه رجل على أبواب الزواج ولا بُد أنَّ يكون له بيت ولا بُد أن يكون له مال!

وقال يعقوب أخيراً:

إنَّ كل الأجر الذي أطلبه هو أن تزوّجني من راحيل ابنة خالي. وليكن مهرها خدمة سبع سنوات!

لقد جاء عبد إسحاق بهدايا كثيرة. أما يعقوب فليس له ما يقدِّمه إلَّا قلبه وخدمة سبع سنوات!

ورحَّب لابان بالفكرة ترحيباً كبيرة وإن كان قد نوى في قلبه الغدر، لأنَّه بعد السنوات السبع أدخل له في خبائه «ليئة» الابنة الكبرى للابان، ولم تكن في جمال أختها ولم يكتشف يعقوب ذلك إلَّا في الصباح. وكان استياؤه عظيماً ولكن لابان قال له إنَّه لم

يكن يستطيع أن يزوِّج الابنة الصغيرة قبل أختها. وهو فوق ذلك مستعدٌ أن يعطيه راحيل بعد أسبوع في نظير خدمة سبع سنوات أخرى!

وفي نهاية الأسبوع تزوَّج يعقوب من راحيل محبوبة قلبه. فأحبها أكثر من ليئة!

ويلذُّ لنا أن نراقب ذلك البيت الذي جمع بين الأختين، زوجتين لرجل واحد!

كانت ليئة الأخت الكبرى الزوجة المكروهة!

وكانت راحيل الزوجة المحبوبة!

وقد اشتعلت نار الغيرة بين الأختين!

أعطى الله لليئة الرحم المفتوح!!

أما راحيل فكانت عاقراً!!!

وولدت ليئة ابن وابنة ثانية وثالثاً ورابعاً، وظلَّت راحيل عاقراً وكانت ليئة في كل مرة تعلن عن فوزها. دعت اسم ابنها البكر رأوبين لأنَّها قالت: «إنَّ الرَّب نظر إلى مذلَّتي. إنَّه الآن يحبني رجلي» ولما ولدت الابن الثاني قالت: «إنَّ الرَّب قد سمع إنِّي مكروهة فأعطاني هذا أيضاً» ودعت اسمه شمعون. ولما ولدت الثالث قالت: «الآن هذه المَرَّة يقترن بي رَجُلي لأنِّي ولدت له ثلاثة بنين» ودعي اسمه لاوي فلما ولدت الرابع قالت: «الآن أحمد الرب» لذلك دعت اسمه يهوذا. وكانت في كل مرة تتكلَّم معلنة عن بهجتها، فتنزل كلماتها سعيراً في قلب أختها. بل إنَّ نفس أسماء الأولاد كانت سياطاً لراحيل. كلَّما سمعت اسم رأوبين رأت فيه

«الابن» وكلَّما سمعت اسم شمعون رأت فيه «سمع الله». ولاوي معناه «الاقتران» ويهوذا «الحمد»

وقد بقيت راحيل بلا ابن. الله لم يسمع لها، وزوجها على وشك أن يهجرها وهي لا تستطيع أن تحمد. كلَّا. لا تستطيع. إنَّها لا تستطيع إلَّا أن تشكو وقد ملأتها الغيرة، فتتقدم إلى يعقوب قائلة: «هب لى بنين وإلَّا فأنا أموت.»

وقد بلغت المنازعة بين الأختين إلى أبعد حد. هوذا راحيل تقدم جاريتها لزوجها عسى أن تحبل وتلد على ركبتيها وولدت الجارية ابنا.. ثم ولدت ابنا ثانياً وأنت تسمعها وهي تتحدَّث عن ذلك فتعجب كيف تقتل الغيرة أسمى العواطف، فإنَّها بعد ولادة الابن الأول دعت اسمه دانا قائلة «قد قضى لي الله وسمع أيضاً لصوتي وأعطاني ابناً» - ولما ولد الثاني قالت «مصارعات الله قد صارعت أختي وغلبت» ودعت اسمه نفتالي!

وليئة؟ لم تكتفِ بأولادها!

لماذا تلد جارية راحيل وجاريتها هي لا تلد؟

ما أعجب ما تعمل الغيرة؟

المرأة التي يغيظها أن ترى ضرةً لها!

ويسيئها أن ترى امرأة أخرى تشاركها زوجها تدفعها الغيرة إلى أن تحضر هي امرأة أخرى لكي تغيظ ضرتها!

نعم قدَّمت ليئة أيضاً جاريتها زلفة وولدت الجارية ابنين!

وظلَّ بيت يعقوب نهباً للخصومات بين أربع نساء وعدد من الأولاد. وكانت كل من الزوجتين تحاول أن تغيظ الأخرى وتتفنَّن

في أساليب الإغاظة. وكانت النُّصرَة لليئة فهي قد ولدت ستة بنين وابنة!

وراحيل لا تزال عاقراً!

ولقد أذلَّها العُقم فالتفتت إلى الله وتوكَّلت عليه وعدلت عن الاتكال على اللفاح أو تفاح المحبة وصلَّت لله فأجاب صلاتها وذكرها فحبلت وولدت ابنا فقالت: «قد نزع الله عاري» ودعت اسمه يوسف قائلة: «يزيدني الرَّب ابناً آخر» وولدت فيما بعد بنيامين وقد دفعت حياتها ثمناً له!

كان بيت يعقوب جحيماً للزوج!

وكان جحيماً للزوجتين!

وكان جحيماً للأولاد!

ولقد قاسى الرجل وزوجتاه مرارة ذلك البيت المنقسم!

وحصدوا مُرَّاً وعلقماً في أولادهم!

كانت حياة الأولاد شريرة إلى أقصى ما يكون الشر. ولقد عبَّر الكتاب عن ذلك بالقول: «إنَّ يوسف أتى بنميمة أخوته الرديئة»

كانوا جماعة سكيرة عابثة مجرمة!

وقد اعتادوا حياة الفجور. لم تكن القبائح أمراً غريباً عليهم حتى أنَّ رأوبين صعد على فراش أبيه ونجَّسه!

والابنة التي كان ينبغي أن تحتفظ باسمها وشرفها، باعت ذلك الاسم وذلك الشرف بلا ثمن. وتاريخ سقطتها نقطة سوداء في حياة يعقوب!

وجريمة شمعون ولاوي!؟ وبيع الأخوة لأخيهم! ما أكثر

المآسي في بيت يعقوب!!

ولقد بكى يعقوب ما شاء له البكاء، ورفع عينيه إلى السماء يشكو ويرجو. ولكن يعقوب كان يعلم!

ونحن أيضا نعلم!!

إنَّ يعقوب كان يحصد البذار الذي زرعه!

وإنَّ اللوم الأول كان عليه هو دون غيره!

فإنَّ ما يزرعه الإنسان إيَّاه يحصد أيضاً!!

٢٢
يعقوب ولابان

«وَأَتَى ٱللهُ إِلَى لاَبَانَ ٱلأَرَامِيِّ فِي حُلْمِ ٱللَّيْلِ وَقَالَ لَهُ: «ٱحْتَرِزْ مِنْ أَنْ تُكَلِّمَ يَعْقُوبَ بِخَيْرٍ أَوْ شَرٍّ»
(تكوين ٣١: ٢٤)

وجد يعقوب في خالِهِ ندّاً له بل صورة منه. فقد كان لابان ماكراً، يأخذ الأمور بالحيلة وحُسن السياسة. وكان يعقوب كذلك!!

ولقد رأيناه - بعد أن أقام يعقوب عنده شهراً، يتقدَّم إليه وقد وضع على فمه ابتسامة كبيرة، ويقول: «ألأَنَّك أخي تخدمني مجاناً؟ عيِّن لي أجرتك»!!

لم يكن هذا منه مراعاة ليعقوب وصالح يعقوب، بل مراعاة لنفسه ومصلحة نفسه. لقد رأى في يعقوب الرجل الذي يحسن رعاية أغنامه، فهو يعمل على إبقائه بكل وسيلة. وإذ يطلب منه يعقوب أن يزوِّجه من ابنته راحيل، لا يمتنع بالقول: «إنَّنا لا نزوِّج الصغرى أولاً» بل يقول: «أن أعطيك إيَّاها خيرٌ من أن أعطيها لرجل آخر!»

ولكنه في نهاية السنين السبع، وتحت ستار الليل، يضع «ليئة» في خباء يعقوب وعندما يثور عليه يعقوب ويتَّهمه بالخداع لا

يضطرب حبله بل يقول وابتسامته لا تفارق شفتيه: «لا يُفعَل هذا في مكاننا، أن تُعطَى الصغيرة قبل البكر.» أكمِل أسبوع ليئة فنعطيك راحيل بالخدمة التي تخدمني أيضاً سبع سنين أخر. وهكذا ضمن بقاء يعقوب معه مدة ثانية!

ولما فرغ يعقوب من دفع «ثمن» زوجتيه تقدَّم إلى خاله وقال: «اصرفني لأذهب إلى مكاني وإلى أرضي. أعطني نساني وأولادي الذين خدمتك بهم فأذهب. لأنَّك أنت تعلم خدمتي التي خدمتك»!

ولم يكشِّر لابان عن ناب الغضب ولم ينتهر ابن أخته. ولو أننا كشفنا عليه لوجدناه يغلي غضباً. ولكنه ابتسم في وجهه وقال: «ليتني أجد نعمة في عينيك. قد تفاءلت فباركني الرب بسببك. ٱبق معي وعيِّن لي أجرتك»!

وكان هذا ما يقصده يعقوب. إنَّه لا يريد أن يخدم مجَّاناً. ولعلَّه احتقر لابان في قلبه لأنَّه باع ابنتيه وأبغضه لأنَّه استغله استغلالاً شائناً. إنَّه لا يعمل مجَّاناً بعد اليوم. ينبغي أن يعمل لنفسه. ولكنه لا يتهافت على القبول ولا يرى في ما عرضه لابان كَرَماً منه يشكره عليه. بل يتقدَّم إلى خاله قائلا: «أنت تعلم ماذا خدمتك وماذا صارت مواشيك معي. لأن ما كان لك قبلي قليل فقد اتَّسع إلى كثير وباركلك الرب في أثري، والآن متى أعمل أنا أيضاً لبيتي؟»

كانت هذه الكلمات غريبة على أُذُنيّ لابان. لم يكن يظنّ أنَّ يعقوب يستطيع ان يقولها. ولكن الأيام تعلِّم الخَجول. وها هو يعقوب يواجه لابان بالحقيقة. ولابان لا يعترض بل يوافق. إنَّ ليعقوب كل الحق أن يعمل لبيته. نعم قل يا يعقوب ماذا أعطيك. قال هذا متحفزاً للمساومة!

أما يعقوب فلا يطلب أُجرةً حسب الظاهر. وهو يقول ذلك صراحة: «لا تُعطني شيئاً». إن صنعت لي هذا الأمر أعود أرعى غنمك وأحفظها. اجتاز بين غنمك كلها اليوم، واعزل أنت منها كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزى فيكون مثل ذلك أجرتي. ويشهد فيَّ ربي يوم غد إذا جئت من أجل أجرتي قدامك. كل ما ليس أرقط أو أبلق بين المعزى وأسود بين الخرفان فهو مسروق عندي.

وفكَّر لابان في نفسه، إن يعقوب لا يعلم ولا شك أنَّ أجرته ستكون تافهة جداً لأن اللون الأسود بين الخرفان والأرقط والأبلق بين المغزى نادر كل الندورة. وإذا عزلنا الموجود من هذا بعيداً فلن يحصيل يعقوب على شيء!

كان لابان يعتقد أنَّ يعقوب لن ينال شيئاً وكان سروره لذلك عظيماً. سيخدمه يعقوب مجَّاناً. ولكنه أخفى فرحته وقال ليعقوب، كمن يقبل عرضاً ليس في صالحه، «هوذا ليكن بحسب كلامك!»

وتمَّ فحص الغنم وأخرجوا منها الأسود والأرقط والأبلق ودفعوها إلى أولاد لابان ليرعوها على مسافة ثلاثة أيام حتى لا يكون ثمت اختلاط بينها. وكان المنتظَر أن يكون نتاج الأغنام الباقية نظيرها، لا أرقط ولا أبلق ولا أسود. غير أنَّ يعقوب كان يخفي سرَّه. لقد تعلَّم في بيت أبيه ومن رعاة كنعان بعض حيلهم مع الغير وها هو يمارس بعضها، أخذ لنفسه قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب وقشَّر فيها خطوطاً بيضاً كاشطاً عن البياض الذي على القضبان. وأوقف القضبان التي قشَّرها في الأجران

في مساقي الماء - حيث كانت الغنم تجيء لتشرب، تجاه الغنم - لتتوحَّم عند مجيئها لتشرب. فتوحَّمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخطَّطات ورقطا وبلقاء. وكرَّر يعقوب هذه العملية إلى أن استضعفت الغنم. فاتَّسع الرجل كثيراً جداً. وكانت له غنم كثيرة وجوار وعبيد وحمير!!

وقد اندهش لابان في أول الأمر، وهو يرى كل النتاج من النوع الذي ليعقوب. فغيَّر الشرط مرة ومرتين وثلاث مرات. وفي كل مرة كان «الحظ» يقف في صف يعقوب!!

وانقلب وجه لابان

اختفت الابتسامة التي كانت تملأ وجهه!

وتحدَّث أبناء لابان قائلين: «أخذ يعقوب كل ما لأبينا. ومما لأبينا صنع هذا المجد»!

لم تكن أغنام لابان قليلة. كان لا يزال غنياً جداً. لكن يعقوب أيضاً غني، وغناه كله من أغنام لابان. لايمكن أن يتركوه يذهب بغنمهم!

وبانت ليعقوب رائحة الغدر فانشغل نوعاً ما. هل صلَّى؟ نظنُّ أنَّه فعل، ولا بُدَّ أنَّه استنجد بملاكه الحارس الذي لاقاه في بيت إيل. وفي الليل ظهر له الملاك وقال: «اَرْجِعْ إِلَى أَرْضِ آبَائِكَ وَإِلَى عَشِيرَتِكَ، فَأَكُونَ مَعَكَ»!!

ويعقوب الحكيم لا يريد أن يقف وحده أمام لابان وأولاد لابان. فهو يرسل إلى زوجتيه فتذهبان إلى الحقل. ومع أنَّه لا يزال يُبدِي الحب لراحيل، إلَّا أن الزوجتين استقرت أمورهما معاً، وهما تجلسان إلى الزوج وتسمعانه يقول: «أَنَا أَرَى وَجْهَ أَبِيكُمَا أَنَّهُ لَيْسَ

نَحْوِي كَأَمْسِ وَأَوَّلَ مِنْ أَمْسِ. وَلٰكِنْ إِلٰهُ أَبِي كَانَ مَعِي. وَأَنْتُمَا تَعْلَمَانِ أَنِّي بِكُلِّ قُوَّتِي خَدَمْتُ أَبَاكُمَا، وَأَمَّا أَبُوكُمَا فَغَدَرَ بِي وَغَيَّرَ أُجْرَتِي عَشَرَ مَرَّاتٍ. لٰكِنَّ ٱللهَ لَمْ يَسْمَحْ لَهُ أَنْ يَصْنَعَ بِي شَرًّا. إِنْ قَالَ هٰكَذَا: ٱلرُّقْطُ تَكُونُ أُجْرَتَكَ، وَلَدَتْ كُلُّ ٱلْغَنَمِ رُقْطًا. وَإِنْ قَالَ هٰكَذَا: ٱلْمُخَطَّطَةُ تَكُونُ أُجْرَتَكَ، وَلَدَتْ كُلُّ ٱلْغَنَمِ مُخَطَّطَةً. فَقَدْ سَلَبَ ٱللهُ مَوَاشِيَ أَبِيكُمَا وَأَعْطَانِي.»

وأخبر يعقوب زوجتيه أنَّ ذلك تمَّ بتدبير الله وإن ملاك بيت إيل سبق وأخبره بكل ذلك. وإنَّ هذا الملاك بعينه قد ظهر له أخيراً وأمره بالعودة إلى أرض ميلاده!

ولم تعترض الزوجتان على عودته.. بل أظهرتا أنهما تقفان في صفِّ زوجهما إذ قالتا: «أَلَنَا أَيْضًا نَصِيبٌ وَمِيرَاثٌ فِي بَيْتِ أَبِينَا؟ أَلَمْ نُحْسَبْ مِنْهُ أَجْنَبِيَّتَيْنِ، لِأَنَّهُ بَاعَنَا وَقَدْ أَكَلَ أَيْضًا ثَمَنَنَا؟ إِنَّ كُلَّ ٱلْغِنَى ٱلَّذِي سَلَبَهُ ٱللهُ مِنْ أَبِينَا هُوَ لَنَا وَلِأَوْلَادِنَا، فَٱلْآنَ كُلَّ مَا قَالَ لَكَ ٱللهُ ٱفْعَلْ»

ورتَّب يعقوب أموره وبدأ يَعُدُّ نفسه للسفر..كان يعلم أنَّ لابان لن يتركه يسافر وأنَّه سيمنعه بالقوة. لقد انقضى عهد الابتسامة والكلام الناعم. سيأخذ منه زوجاته وأولاده وسيطرده وحيداً كما جاء. وإذا لزم الأمر فإنَّه يجلده ويسجنه!

ويقتله !!!

كان يعقوب يعلم كل ذلك، فهو يسير في أموره بكتمان. وينتهز فرصة غياب لابان - إذ كان قد ذهب ليجزّ غنمه - ويحمل قومه ويسوق أغنامه وماشيته وينطلق نحو كنعان!

ولم يعلم لابان بهروب يعقوب إلَّا في اليوم الثالث. فأخذ عدداً

من أهله وسعى وراء يعقوب مسيرة سبعة أيام حتى ادركه في جلعاد. وكان في نيَّتِهِ أن يقضي على يعقوب ويسلبه كل ماله. ولكن الله ظهر له في حلم وحذَّره من الإساءة إلى يعقوب. ويبدو أنَّ التحذير كان قوياً حتى أنَّ لابان كف عن أن يأتي إساءة!

ويلذُّ لنا أن نلاحظ الرجُلين الماكرين يتقابلان وجهاً لوجه، ويحاول كل منهما أن يوقع اللوم على الآخر. كان كل منهما يقول ما لا يؤمن به. اسمع لابان يقول: «ماذا فعلت وقد خدعت قلبي وسقت بناتي كسبايا السيف. لماذا هربت خفية وخدعتني ولم تخبرني حتى أُشيّعك بالفرح والأغاني والدُّف والعود. ولم تدعني أقبِّل بنيَّ وبناتي. الآن بغباوة فعلت. في قُدرة يدي أن أصنع بكم شرَّاً ولكن إلٰه أبيك كلَّمني البارحة قائلاً: احترز من أن تكلِّم يعقوب بخير أو بشرٍّ!

والآن انت ذهبت لإنَّك اشتقت إلى بيت أبيك ولكن لماذا سرقت آلهتي؟»

كانت راحيل قد سرقت أصنام أبيها وهي تماثيل صغيرة كانوا يحملونها للتبرُّك بها. وفتَّش لابان أمتعة يعقوب ولم يجد «الآلهة» لأنَّ راحيل كانت قد خبَّأتها في حداجة الجمل وجلست عليها!

وانتهز يعقوب الفرصة وتحدَّث إلى لابان مغيظاً غاضباً، وذكر أنَّه كان أميناً له وأنَّه خدمه «بإخلاص».. وإنَّ أجرته تغيَّرت عشر مرات، وإنَّه لاقى في سبيل خدمته كل مشقَّة، وإنَّه «لولا إلٰه أبي إلٰه إبراهيم وهيبة إسحاق كان معي لكنت الآن صرفتني فارغاً. مشقَّتي وتعب يدي قد نظر الله فوبَّخك البارحة»..

واعتذر لابان وذكر انَّه ما كان ينوي أن يصنع شرَّاً. وبمن يصنع

الشر، وكل ما عند يعقوب هو من لابان؟

وقطع كلاهما عهد سلام حول وليمة. وفي الصباح قبَّل لابان بنيه وبناته وباركهم ومضي!!!

وتنفَّس يعقوب الصعداء ورفع عينيه إلى الله في صلاة الشكر!!

٢٣

راحيل

الزوجة المحبوبة

«وَأَحَبَّ أَيْضًا رَاحِيلَ أَكْثَرَ مِنْ لَيْئَةَ» (تكوين ٢٩: ٣٠)

هذه قصة حُب من هاتيكم القصص التي لا يمكن أن نملَّ سماعها أو روايتها. وقد سجَّلها الكتاب المقدَّس صورة حقيقية، لم يشأ أن يلوِّنها أو يلمسها بفرشاته، فجاءت صورة جميلة لأنَّها صورة طبيعية!

ذهب الرجل الذي اختارته العناية ليأخذها زوجة دون أن يراها. في الحق إنَّه لم يكن أمامه امرأة معينة ولكن الأقدار حملته إليها!

ضرب يعقوب في مجاهل الصحراء أياماً لا نعرف عددها. وخرج منها وقد تركت الصحراء آثارها عليه. فهو متعب مكدود ولكنه صلب اليقين عظيم الأمل. وعندما وصل إلى حاران انطرح بجوار البئر يتطلَّع إلى الشرق بعين حالمة. وأبصر قطعاناً تسوقها فتيات ورجال، وسأل عن لابان خاله، وسأل عن سلامته. ويبدو أنَّ خاله كان رجل ثراء، بل لقد قيل إنَّه صاحب البئر. وأخبروه أنَّ خاله يعيش وأنَّ ابنته راحيل في الطريق. وقبل أن تصل ابنة خاله إلى عين الماء كان هو قد رفع غطاء البئر، وجعل يملأ حوض

السقي. فلما وصلت أغنام خاله أطلقها لتشرب واقترب من راحيل، وكانت صورة رائعة الجمال البدوي، وأحبَّها لأول نظرة، وقبَّلها قُبُلات امتزج فيها حبُّه بحنين أحشائه لذوي قرباه!!

ولا عجب أن يحب يعقوب راحيل!

فقد كان قلبه يحنُّ إلى الحب، بعد أن قطع الصلات بينه وبين ذويه، بل انقطع سبيل ذلك الحب من قبل أن تفصل المسافات الشاسعة بينه وبينهم!

وعند بئر حاران أبصر الجمال والشباب، وناداه وجه راحيل، ونادته عيناها، فاستجاب قلبه للنداء، وأصبح كل حلمه في الحياة أن يتزوج منها!

وفي حاران أُتِيحَت له الفرصة أن يجلس إليها طول النهار، إذ كان يرعى معها أغنام خاله. وكان هو بالطبع يقوم بكل شيء ليوفِّر لها كل أسباب الراحة. ولمدة شهر كامل عاشا معاً يعملان ويتحدَّثان. ولا شك أنَّه حدَّثها عن جدِّه إبراهيم وعن أبيه وآباره.. وحدَّثها عن عيسو وألاعيبه معه. فقصَّ لها قصة طبق العدس. ثم حدَّثها عن خداعه لأبيه. وقد ضحكت راحيل طويلاً وهي تسمع كيف استطاعت عمتها أن تخفي جلد يعقوب الأملس تحت جلد الجديين. واضطربت عندما حدَّثها عن تهديد عيسو بقتله!!

ولقد طلبت منه أن يعيد لها حديث رؤياه ووعد إلٰه إبراهيم وإسحاق له أن يكون معه!!

كانت راحيل متديِّنة بطبيعتها وكانت تميل إلى حد بعيد إلى الوثنية. ولكن قصة إبراهيم كانت تستهويها!

هل أحبَّت يعقوب؟

يغلب أنَّها أحبَّته، لأنَّه وإن يكن هو أكبر منها كثيراً، إلَّا أنَّ المرأة تعجب دائماً بمن يحسن تقديم نفسه، وقد نجح يعقوب في ذلك!

وكان يعقوب يحسُّ أنَّ حبَّه حُبٌّ عقيم. إنَّه لا يستطيع أن يتقدَّم من خاله ويطلب أن يزوِّجه من محبوبة قلبه!

فمن هو يعقوب؟!!

إنَّه رجلٌ بلا مال ولا أهل ولا بيت. وإنَّ من فضل خاله عليه أن يؤويه! وخاله سيِّد حاران. أغنامه تملأ السهل. وله عبيد وأماء.. وفضة وذهب!

كلَّا. إنَّه لن يتزوج. إنَّ حُبَّه حبٌّ عقيم!

ولكن خاله يتقدَّم منه ذات مساء، ويطلب من يعقوب بعد أن رأى مهارته في رعاية الغنم أن يرعى أغنامه وأن يعيَّن له أجرته نظير ذلك!

ومن دون أن يفكِّر يعقوب، قال أخدمك براحيل سبع سنين!!

لكن هل كان جوابه بدون تفكير؟ ربما كان يفكِّر أن يعمل راعياً ويجمع مالاً لنفسه. وربما حسب أنَّه في خلال سبع سنوات يمكنه أن يجمع مهر راحيل. فلما سأله خاله عن الأجرة قال «راحيل بشغل سبع سنوات!»

يا له من حُبٍّ!

سبع سنوات كاملة، في النهار يأكله الحَرّ، وفي الليل يبريه البريد والجليد. وقد جعل يعمل شهوراً طويلة. ولكنه كان يعمل بسرور لأنَّه كان ينظر إلى الأجرة!

ومرت السنون السبع!

وجاء أوان دفع الثمن. وخدع لابان يعقوب. وفي ظُلْمَةِ الليل أعطاه ليئة. وكان غضب يعقوب عظيماً. وكادت تحدث مأساة، لولا أنَّ لابان وعد أن يعطيه راحيل بعد سبعة أيام عُرس ليئة نظير عمله سبع سنوات أخرى!

واجتمع الحبيبان!

ولكن كان ينغِّص عليهما وجود شريك

على أنَّ يعقوب أغفل ليئة كل الإغفال، وسكب كل حبّه لراحيل. وبكت ليئة كثيراً وتذلَّلت إلى الله. وسمع الله لها فأعطاها رحماً مفتوحاً. وأعطى أختها رحماً مغلقاً!؟

ونالت ليئة مكانها كزوجة، ولكن راحيل ظلَّت المرأة المحبوبة، غير أنَّها لم تكن سعيدة. وقد لجأت إلى كل وسيلة للحصول على الولد، فأعطت جاريتها لزوجها وطلبت تفاح المحبة من أختها. وأخيراً تذلَّلت إلى الله، وسمع الله لها فأعطاها يوسف. وبعد مدة طويلة أعطاها بنيامين ولكنها دفعت حياتها ثمناً للولادة. نعم ماتت راحيل، وخلفت في قلب زوجها جرحاً لم يندمل إلى آخر الأيام. وكانت تعزيته الكبرى في ابني راحيل، يوسف وبنيامين!

وحبّ يعقوب لراحيل صورة لقوة الحب الجارفة. أحبَّ يعقوب راحيل لأنَّه رآها أهلاً للحب. ولم نندهش نحن أن نري يعقوب يحبها ويدفع سبع سنين من حياته في سبيلها فقد كانت حسناء، وكانت عيناها ساحرتين. ولكننا رأيناها بعد ذلك امرأة يملأ البُغض قلبها والحسد والخصام والشر. وقد قدَّمت لنا مثال المرأة السيِّئة في محاربتها لأختها وصراعها معها. بل رأيناها تسرق أصنام

أبيها وتكذب وتخدع، وتخيء الآلهة الغريبة. وقد رأى يعقوب كل ذلك ومع ذلك فقد ظلَّ يحبها لأنَّ «المحبة قوية كالموت.. مياه كثيرة لا تستطيع أن تطفيء المحبة والسيول لا تغمرها»

٢٤
هـ - إسرائيل

«فَقَالَ: «لَا يُدْعَى ٱسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لِأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ ٱللهِ وَٱلنَّاسِ وَقَدَرْتَ»
(تكوين ٣٢: ٢٨)

انتهت مشكلة لابان ولكنَّها لم تكن المشكلة الأخيرة!

كانت هناك مشكلة أقسى هي مشكلة عيسو. لقد استطاع أن يتملَّص من لابان وبقليل من ظاهر الغيظ استطاع أن ينتصر عليه. ولكن عيسو ليس لقمة سهلة كلابان!

نعم إن عيسو أكثر إخلاصاً من لابان!

لكنَّه رجل جد!

وقد أقسم ليقتلن يعقوب!

وهو على ذلك موتور، فقد سلبه يعقوب بكوريته وبركته!

ومع عيسو جنود وسلاح، وهو يستطيع أن يمسح يعقوب وكل من له وكل ماله في أقل وقت!

ويعقوب يحسُّ أنَّه يستحق!

لقد أساء إلى عيسو!

وانتقام عيسو حق!

لكن أَلَا يمكن أخذ عيسو بالحيلة؟ لماذا لا!؟

لذلك يُرْسِل رسلاً قدامه إلى عيسو أخيه إلى أرض سعير بلاد أدوم، وهو يأمرهم قائلاً هكذا تقولون لسيِّدي عيسو. هكذا قال عبدك يعقوب تغرَّبت عند لابان ولبثت إلى الآن. وقد صار لي بقر وحمير وغنم وعبيد وإماء وأرسلت لأخبر سيدي لكي أجد نعمة في عينيك!

وعاد رُسُل يعقوب يخبرونه أنَّهم أدُّوا الرسالة وإنَّ «عيسو قادمٌ للقائك وأربع مئة رجل معه»

ها قد حلَّت الكارثة!

عيسو وأربع مئة رجل!

إنَّه بالطبع لا يأتي بهذا العدد العديد من الرجال ليصافحني ويرحَّب بي!

ولا يأتي بهم لكي يحرسوني ويحفظوا ما معي!

لاشك أنَّه قادمٌ ليضربني ضربة ساحقة!

أربع مئة رجل!

وكيف استطيع أن أقف أمامهم؟

ونحن نلاحظ حرباً سجالاً في داخل يعقوب، بين يعقوب رجل الحيلة، ويعقوب الذي أبصر حلم بيت إيل!

يعقوب الأول يقسِّم القوم الذين معه والغم والبقر والجمال إلى جيشين، حتى إذا جاء عيسو إلى الجيش الواحد وضربه يكون الجيش الباقي ناجياً!

ولا يقف في الحيلة هنا، ولكنَّه يأخذ مما أُتي بيده هدية لعيسو

أخيه، من ماعز وتيوس ونعاج وكباش ونياق مرضعة وبقر وثيران وأُتن وحمير، وهو يسلم هذه لعبيده قطيعاً قطيعاً، ويطلب أن يجعلوا فسحة بين قطيع وقطيع ويطلب من كل عبدٍ إذا صادفه عيسو وسأله قائلاً لمن أنت وإلى أين تذهب ولمن هذا الذي قدامك أن يقول «لعبدك يعقوب. هو هدية مرسلة لسيِّدي عيسو وها هو أيضاً وراءنا» - وهو يأمر أيضاً الثاني والثالث وجميع السائرين وراء القطعان قائلاً مثل هذا الكلام تكلِّمون عيسو حينما تجدونه وتقولون «هوذا عبدك يعقوب أيضاً وراءنا»

هذا هو يعقوب السياسي الذي يرجو أن يستعطف وجه أخيه بالهدية السائرة أمامه قبل أن ينظر وجهه عسى أن يجد نعمةً في عينيه!

غير أنَّ يعقوباً آخر كان يعمل في داخله هو يعقوب بيت إيل!

يعقوب الذي لا يطمئن إلى الحيلة أو السياسة أو الحكمة الأرضية!

يعقوب الذي لا يفكِّر في البشر أو ذراع البشر أو قوَّة البشر!

يعقوب الذي يرفع عينيه إلى الله، ويقول: يا الله أبي إبراهيم وإله أبي إسحاق، الرَّب الذي قال لي ارجع إلى أرضك وإلى عشيرتك فأحسن إليك. صغيرٌ أنا عن جميع ألطافك وجميع الأمانة التي صنعت إلى عبدك. فإنِّي بعصاي عبرت هذا الأردن والآن قد صرت جيشين. نجِّني من يد أخي من يد عيسو، لأني خائفٌ منه أن يأتي ويضربني الأم مع البنين. وأنت قد قلت إنِّي أحسن إليك وأجعل نسلك كرمل البحر الذي لا يُعَدُّ للكثرة!

يعقوب بيت إيل الذي يستمر الليل كله يصارع الملاك.. وتبلغ

حِدَّة مصارعته درجة ما بعدها درجة حتى يقول له الملاك: «اطلقني لأنَّه قد طلع الفجر»، فيقول له: «كلَّا. لا أطلقك إن لم تباركني».. فيسأله: «ما اسمك» فيقول: «يعقوب»، فيجيب الملاك: «لا يُدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل، لأنَّك جاهدت مع الله والناس وقدرت»!

ومن ذلك الوقت اختفى اسم يعقوب وظهر اسم إسرائيل!

وفي الصباح أقبل عيسو ورجاله! وحالما أبصر يعقوب ركض للقائه وعانقه ووقع على عنقه وقبَّله وبكيا!

وكان عيسو كريماً فحاول أن يرفض هدية أخيه، ولكن يعقوب أصرَّ - وحاول أن يأخذ يعقوب إلى دياره فاعتذر. وعرض أن يترك من رجاله من يحرسون يعقوب فشكره يعقوب!

وافترق الأخان على أتمِّ وفاق، شقيقين محبين متصافيين!

ورفع يعقوب عينه مرة أخرى إلى السماء إلى ملاك بيت إيل، وألقى تسبحة شكر صامتة!!

٢٥

و - تجارب نارية

وَهُوَ وَقْتُ ضِيق عَلَى يَعْقُوبَ، وَلٰكِنَّهُ سَيُخَلَّصُ مِنْهُ

«فَخَافَ يَعْقُوبُ جِدًّا وَضَاقَ بِهِ ٱلْأَمْرُ وَقَالَ يَعْقُوبُ: «يَا إِلٰهَ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَإِلٰهَ أَبِي إِسْحَاقَ نَجِّنِي مِنْ يَدِ أَخِي، مِنْ يَدِ عِيسُوَ، لِأَنِّي خَائِفٌ مِنْهُ»
(تكوين ٣٢: ٧، ٩، ١١)

لم تكن طريق يعقوب مفروشة بالورد، بل كان الجانب الأكبر منها مغطى بالشوك. ولقد غيَّر الملاك اسمه من يعقوب إلى إسرائيل ولكن ذلك التغيير استلزم في ذلك الوقت أن يضربه الملاك على حُقِّ فخذه فيكسره. لم يستطع يعقوب أن ينال البركة رخيصة. ولم يتغيَّر اسم يعقوب فقط بل بدأت أطوار تغيير في حياته. إنَّه ينتقل فعلاً من يعقوب إلى إسرائيل، من الإنسان المتعقِّب الذي يشبه الكلب، إلى الأمير المنتصر. ولكن ذلك التغيير كان يتطلَّب أن يسير في بحر من نار!!

نجا من لابان.. ونجا من عيسو وظنَّ أنَّه سيستريح. ولكنه لم يسترح بل تلقَّى تجارب عدة، كانت تجارب نارية.

عاد عيسو إلى بلاده وارتحل يعقوب إلى سكوت ومنها إلى شكيم.. وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حمور

إلى شكيم. وظنَّ أنَّ متاعبه انتهت وأنَّه سيستقر بعد طول ارتحال!

لكنَّه في شكيم لقى إحدى أَمَرّ تجاربه. فقد خرجت ابنته لتنظر بنات الأرض وما كان ينبغي أن تخرج. فقد تربَّت في البادية ولها طباع بنات البادية وهي تريد التعرُّف إلى بنات المدينة. لم يكن طريقها أميناً. ومهما قُلنا عن مأساة بيت يعقوب، فقد كانوا أنقى قلباً وأخلص ضميراً من بيوت المدينة!!

وفي المدينة زلَّت قدمها. وحاول الشاب المسيء أن يغطِّي إساءته فعرض على أبيها وإخوتها أن يتزوَّج منها!

أحسَّ يعقوب بطعنة قاتلة في قلبه!

وبنوه رأوا في إذلال أختهم لطمة أذلَّت أنوفهم وأحنت رؤوسهم إلى التراب!

وتكلَّم إخوة الفتاة بمكر. قالوا إنَّهم لا يستطيعون أن يزوِّجوا أختهم من أغلف وإنَّهم لا يستطيعون الارتباط بمدينة شكيم إلَّا إذا اختتنت المدينة كلها. فإذا كانوا جادين في طلب الزواج فليختتنوا!

وحسن الكلام في عين الشاب وعين أبيه وأقنعا قومهما فاختتن كل ذكر كل الخارجين من باب المدينة!!!

وفي اليوم الثالث إذ كانوا متوجهين قام شمعون ولاوي ابنا يعقوب واستل كلّ منهما سيفه، وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر، وقتلا حمور وشكيم ابنه بحدِّ السيف وأخذا أختهما «دينة» من بيت شكيم وخرجا! ثم أتي بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة.. سلبوا ونهبوا كل ثروهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في البيوت!!

وكان عمل شمعون ولاوي عملاً عظيماً تقرَّه قوانين البادية، ويتَّفق مع كرامة أهلها، ولكنه كان عملاً خطيراً وخطراً. فقد كانت لشكيم وحمور صلات قرابة وغير قرابة بكثير من المدن المحيطة. وكان المنتظر أن تقوم تلك المدن وتمسح يعقوب وبيت يعقوب من خريطة الأرض. وقد ثار يعقوب على ولديه وقال لهما، كدرتماني بتكريهكما إيَّاي عند سكان الأرض، الكنعانيين والفرزيين، وأنا نفرٌ قليل، فيجتمعون عَلَيَّ ويضربونني فأبيد أنا وبيتي!.. وأمره ملاك الرَّب أن يصعد إلى بيت إيل فقام هو وبيته وكان خوف الله على المدن التي حولهم، فلم يسعوا وراء بني يعقوب. وهكذا تحقَّق مرة أخرى الوعد القائل «وَهُوَ وَقْتُ ضِيق عَلَى يَعْقُوبَ، وَلٰكِنَّهُ سَيُخَلَّصُ مِنْهُ»

وبعد أن قضى يعقوب وقتاً في بيت إيل ارتحل منها. ولما كان مسافة من الأرض بعد حتى يأتوا إلى أفراتة ولدت راحيل وتعسَّرت ولادتها. وحاولت القابلة أن تشيع البهجة في نفسها قائلة لها: «لا تخافي لأن هذا أيضاً ابن لك.» ولكنها لم تعش لتفرح بابنها الثاني. وكان قبل أن لفظت آخر أنفاسها أنَّها دعت اسم ابنها بن أوني أي ابن حزني وغمِّي!!

أما يعقوب فقد هزَّه موت راحيل. صحيح أنَّه لم يقبل أن يدعي ابن راحيل بن أوني فدعاه بنيامين أي ابن قوَّتي. إلَّا أنَّ حزنه لفقد محبوبة الشباب كان طاغياً. ونحن نحسُّ بذلك الحزن يتجدَّد عنده. وبعد سنين كثيرة نسمعه يتحدَّث عن راحيل وابني راحيل بنغمة عميقة تكشف عن ألم دفين لم تستطع الأيام أن تخفف من حِدَّته!

ماتت راحيل ولم يبق من آثارها إلَّا يوسف وبنيامين!!

ولقد تعزَّي يعقوب بابني راحيل. كانا له كل شيء. وعندما سمع عن سيرة أولاده الرديئة حزَّ ذلك في قلبه وتألَّم لذلك أشد الألم ولكنَّه عزَّي نفسه بأنَّه قد بقى له سبب رجاء، يوسف وبنيامين!

غير أنَّه في أحد الأيام خرج يوسف ليفتقد إخوته ولم يعد. بل جاء إخوته يقولون لأبيهم وقد أمسكوا بقميص ملوث بالدم «حقِّق، أقيص ابنك هو أم لا» فتحققه وقال قيص ابني وحش رديء أكله. افترس يوسف افتراساً ومزَّق يعقوب ثيابه، ووضع مسحاً على حقويه، وناح على ابنه أياماً كثيرة.. وحاول أبناؤه أن يعزُّوه فأبى أن يتعزَّى وقال إنِّي أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية.. وجعل يبكي ويبكي إلى أن ضاع نور عينيه أو كاد!!

واستمر حزن يعقوب. نعم قد فقد الحزن حدَّته بمرور الزمن ولكنه ظلَّ حزناً طاغياً جارفاً. وبعد عشرين سنة تعرَّض ابنه الثاني للضياع. كان إذ ذاك ابن مئة وثلاثين سنة. وأبناؤه يقولون: «لا نستطيع أن نذهب إلى مصر لنشتري قمحاً لأولادنا إلَّا إذا ذهب بنيامين معنا، هكذا قال سيِّد الأرض»!!

وثار ذلك الشيخ وكاد يتمرد على الله وانحنت رأسه تحت ثقل تلك التجربة. وذهب بنيامين إلى مصر ولكنه عاد. وكانت فرحة أبيه بعودته لا حدَّ لها. وتضاعف الفرح فإنَّ بنيامين يحمل له خبراً لا يُصدَّق، إنَّ يوسف حيٌّ وإنَّه سيِّد مصر. وإنَّه هو الذي يوزِّع الطعام للعالم الجائع. وإنَّه يدعو أباه وبيته إليه!

هذه ولاشك أحلام!

أو هي تخريف الشيخوخة!

هل يمكن أن يكون هذا؟

يوسف حي!؟!

يوسف سيِّد مصر!

يوسف عنده الطعام؟؟؟

يوسف يدعوني لأذهب إليه!؟

كفى. يوسف ابني حي بعد. اذهب وأراهُ قبل أن أموت!

وذهب يعقوب وقَبَّلَ يوسف. وعاش سبع عشرة سنة وأسلم روحه بين يدي ابنه وقد انطلق إلى ربِّه راضياً مرضياً.

٢٦
صاحب الأحلام

«فَأَتَى إِخْوَةُ يُوسُفَ وَسَجَدُوا لَهُ بِوُجُوهِهِمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ.... فَتَذَكَّرَ يُوسُفُ ٱلْأَحْلَامَ ٱلَّتِي حَلُمَ»
(تكوين ٤٢: ٦، ٩)

نام يوسف مبكراً كعادته واستغرق في نومه الحلو، وقد غمر نور سماوي وجهه النَّقي الذي يشبه في برارته وجوه الأطفال. وفيما هو مستغرقٌ في نومه، بدأ فمه ينفرج عن ابتسامة صغيرة. ظلَّت تتَّسع وتتَّسع حتى ملأت وجهه. وفي الصباح قصَّ على إخوته حلماً رآه في ليلته الماضية. اجتمعوا وهُمْ ينظرون إليه نظرات صارمة، يتجلَّى فيها مزيج من الحسد والاحتقار. وبعد أن بدأ يقصّ حلمه، تحوَّلت نظراتهم شواظاً من نار، وامتلأت وجوههم الكريهة بغضب جهنمي!

لم يلاحظ يوسف ما تجلَّى على وجوه إخوته من البغضة فاستمرَّ يقصُّ حلمه قال:

رأيت إنَّنا في الحقل!

وإنَّ الوقت وقت الحصاد!

وجمع كلٌّ منَّا حزمة من القمح، وطرحناها متجاورة في طرف

الحقل!

وبغتة حدثت آية!

أبصرت وإذا حزمتي تتحرَّك من مكانها، وحدَّقنا النَّظر إليها نبحث عمَّن يحرِّكها ولكنَّنا لم نَرَ أحداً. وظلَّت الحزمة تتحرَّك حتى قامت منتصبة. كانت كأنَّها تقف على قدميها، أو تجلس على عرش عالٍ! وبغتة بدأت كل الحِزم الأخرى تتحرَّك ولكنها لم تنتصب بل تقدَّمت حزمكم وسجدت لحزمتي!

وقطر السُّمُّ من عيون إخوته وفاضت كلماتهم أفسنتيناً، وقالوا ألعلَّك تملك علينا ملكاً أم تتسلَّط علينا تسلُّطاً؟!

أما يوسف فلم يلاحظ غضبهم وثورة نفوسهم بل مضى في طريقه مبتهجاً. ومرَّت عدَّة أيام وفي صباح يوم قال لإخوته، لقد رأيت حلماً آخر وكان حلماً غريباً! قال: رأيتُ إنَّنا أمام الخيمة وأنا اتطلَّع إلى السماء. كانت الشمس تجلس على عرشها الذهبي وترسل أنوارها النارية إلى كل جهة. وكان القمر يتألَّق بالقرب منها بنوره الفضي. ثم أبصرتُ عدداً من الكواكب تحيط بالقمر كعقد دري. وفيما أنا أتعجب من وجود تلك المجموعة السماوية في مكان واحد، وكيف أنَّ نور الشمس لم يحجب أضواء القمر والنجوم، فيما أنا أسأل نفسي عن سرٍّ ذلك، إذا بي أرى الشمس تتقدَّم وقد تجلَّى في مشيتها خضوع، وظلَّت تسير وسار في ركابها القمر والكواكب الأحد عشر. وانحدرت تلك المجموعة من عليائها، وظلَّت تنحدر إلى أن وصلت إلى الأرض، إلى حيث كنتُ جالساً وسجدت لي!

وصاح يعقوب، ما هذا الحلم يا يوسف. أتظنّ أنّي أنا وأمك

وإخوتك سنسجد لك إلى الأرض؟

أما إخوته فاض قلبهم حقداً، وفاضت عيونهم بغضة، ولكنهم لم ينطقوا بكلمة واحدة، وتركوه وقلوبهم تغلي!

قال أحدهم: إنَّ المغرور يحلم بالسُّلطة والسيادة. ذلك المجنون. إنَّه يجلس طول يومه يتأمل في قميصه الملون ويفكر في أن يكون خليفة أبيه!

وقال الثاني: نعم فقد رأيته كثيراً وهو يجلس ساهماً يتأمَّل في الفضاء البعيد، ويتحدَّث إلى المجهول عن آماله في أن يكون رأساً ورئيساً!

وقال الثالث: وهكذا تنقلب خيالات نهاره أحلاماً في الليل!

وقال الرابع: ويدَّعي أنَّ الله أرسل له إعلاناته في الأحلام، وينال مكان السيادة بهذا التهويش!

وهكذا جعل إخوته يتحدَّثون بسخرية عن أحلام أخيهم وعن انتظاراته. وفي ذلك الوقت نبتت في رؤوسهم فكرة إهلاكه. نبتت فكرة غامضة متأرجحة ولكنهم احتضنوها وأولوها بالرعاية حتى نَمَت وترعرعت في ما بعد، وأثمرت تلك الجريمة المروعة التي سجَّلها الوحي على الإخوة الآثمين!

ولكن أحلام الشاب يوسف لم تكن خيالات طائشة، ولا قصوراً في الهواء وإنَّما كانت ذلك الهدف البعيد الذي كانت نفس الشاب ترنو إليه من بعيد وتعمل على تحقيقه. ولقد بنى مجده لا من خارج نفسه بل في داخله، فأحاط نفسه بسياج من العزيمة والثبات والأمان، وأبرز سيادته قوية في خُلُقِهِ وسِمِوِّ صفاته. نعم فقد ملك يوسف على إخوته من قبل أن يملك في مصر. ولو أنَّ حياته انتهت

قبل أن يصل إلى القصر لقلنا إنَّ أحلامه تحققت!!

على أنَّ يوسف وصل بعد جهود وجهاد إلى تحقيق أحلامه بصورة ظاهرة عندما ملك في مصر وجاء إخوته وسجدوا له فعلاً!

كان سجود الحزم حلماً!

وكذلك كان سجود الشمس والقمر!

وقد تحقَّقت هذه الأحلام!!

٢٧
محمود

«وَحَبِلَتْ أَيْضًا وَوَلَدَتِ ٱبْنًا وَقَالَتْ: «هٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ أَحْمَدُ ٱلرَّبَّ». لِذٰلِكَ دَعَتِ ٱسْمَهُ «يَهُوذَا»
(تكوين ٢٩ : ٣٥)
«يَهُوذَا، إِيَّاكَ يَحْمَدُ إِخْوَتُكَ» (تكوين ٤٩:٨)

لعلَّهُ يبدو لنا اسماً غريباً بين الأسماء الكتابية ولكنه اسم حقيقي وإن كان قد جاء أصلاً في لغة أخرى. فهو أحمد أو حمدي أو محمَّد أو محمود أو ممدوح وهو مشتق من اسم ابن يعقوب الرابع. يهوذا.

ولدت ليئة ابناً رابعاً ليعقوب وقالت: «هٰذِهِ ٱلْمَرَّةَ أَحْمَدُ ٱلرَّبَّ». لِذٰلِكَ دَعَتِ ٱسْمَهُ «يَهُوذَا» ولا نعرف الكثير عن طفولته وصبوَّته.

ولكننا نراه شاباً!

ولا نذكر له في شبابه شيئاً حسناً!

كان أحد أبناء يعقوب الذين أتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيه. ولئن كان لم يجمح في حماقاته إلى مثل ما جمح إليه رأوبين فإنَّ حماقاته لا تقِلُّ عن حماقات رأوبين كثيراً!

كذلك كان أحد الأخوة الذين حسدوا يوسف وأبغضوه. وكان هو المتقدِّم في أمر بيعه. بل إنَّه هو الذي اقترح أمر البيع!

ونراهُ بعد ذلك يزور صديقاً عدلامياً له اسمه حيرة ويستهويه جمال امرأة كنعانية فيتزوجها، ويلد منها ثلاثة بنين، عير وأونان وشيلة. ويختار زوجة لبكره عير ثامار الكنعانية ولكن عيراً رجلٌ شرير جداً ولم يُسَرُّ به الرب فأماته. ويطلب يهوذا من أونان أن يتزوج من امرأة أخيه ليقيم نسلاً لأخيه. ويمتثل أونان ولكنه يحاول ألَّا يأتي بنسل لا يُحسَب له فيضربه الرب فيموت. ويخشى يهوذا أن يطلب من شيلة أن يتزوج من ثامار لئلَّا يصيبه ما أصاب أخويه. فيقول لثامار أن تنتظر حتى يكبر شيلة! وماتت زوجة يهوذا فترك المكان وعاد إلى بيت أبيه وظَلَّ هناك مدة طويلة. وكبر شيلة وعلمت ثامار أنَّ حماها ليس جاداً في زواجها من شيلة!

وجاء يهوذا لزيارة صديقه العدلامي فأقدمت ثامار على ما نعتبره عملاً آثماً، وإن كان حكماء اليهود يعتبرونه عملاً نبيلاً. فقد خلعت ثياب ترملها ولبست ثياب إحدى النساء اللواتي ينذرن تكريس جسدهن للآلهة عشتورث مدة وكُن يدعين بالقديسات وكانت المرأة تقدِّم نذرها لسبب هام. أما ثامار فقصدت أن تبريء نفسها من اللوم في عدم زواجها من شيلة. وكانت تطلب أن تأتي بنسل لزوجها الذي مات!

وتقدَّم يهوذا من ثامار دون أن يعرفها وطلب أن يدخل إليها وكانت قديسات عشتورت يُعطين جدياً من المعزى يقدمنه للآلهة. ووعد يهوذا أن يرسل لها الجدي وأعطاها عصاته وعصابته وخاتمه رهناً!

ولا شك أننا نظر بكثير من الانزعاج إلى ما عمله يهوذا، وإلى ما عملته ثامار وإن كنا نلوم يهوذا أكثر!

ونحن نسأل باندهاش كيف يمكن أن يكون الرجل الفاسق أباً لذاك الذي سيكون نور إعلان للأمم ومجداً لشعب إسرائيل. بل يزداد اندهاشنا عندما نعلم أنَّ المسيح جاء من ثامار!!

وقيل ليهوذا إن كنَّته قد زنت، فثار غضبه وأمر أن تخرج لتُحرَق، وكان هذا قصاص الزانية فلمَّا أخرجوها أرسلت إلى يهوذا الرهن الذي أخذته منه يوم دخل إليها، وإذ ذاك علم الأمر على صحته واعترف بأنَّه وحده الملوم، لأنَّه لم يزوِّجها من ابنه شيلة!

هذا هو يهوذا!

شاب لم يحسن التصرُّف في الشباب!

ولكنه يختم تاريخه ختاماً مجيداً، إنَّه يقف أمام أبيه ويقول ليذهب بنيامين معنا إلى مصر أنا أضمنه، من يدي تطلبه. إن لم أجيء به إليك أقف مذنباً أمامك كل الأيام. ويعقوب الذي سخر من كلام رأوبين يستمع بتقدير إلى كلام يهوذا ويسلمه له!

وكان أميناً لرسالته!

فإنَّه عندما اتَّهم يوسف بنيامين بسرقة طاسه الفضي وطلب أن يأخذ بنيامين عبداً دافع يهوذا دفاعاً مجيداً. وضع كل حياته في كلماته. إنَّنا نحسّ أنّه لم يقدم كلاماً ولكنه كان يسكب قلبه. وهو يقدِّم نفسه فدية عن أخيه!

كلَّا ليس هذا هو ذلك الفاسق الذي رأيناه يقول نبيع أخانا!

وليس هو المُستهتِر الذي أساء إلى شبابه واختلط بالأجنبيات، وكان أول من ذكر الكتاب من بني إسرائيل أنَّه ذهب إلى امرأة زانية!

كلَّا ليس هذا يهوذا الذي عرفناه!

إنَّه يهوذا جديد!!

٢٨
الطريق إلى العرش

«فَقَالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِهِ: «هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هٰذَا رَجُلًا فِيهِ رُوحُ ٱللهِ؟»
(تكوين ٤١ : ٣٨)

كان يوسف بن يعقوب ابن راحيل أحبّ الأبناء إلى أبيه، فهو أول من ابتسمت له أمه، بل الوحيد الذي ابتسمت لمقدمه، لأن ابنها الثاني عندما أقبل انطلقت هي!!

وكان يوسف شاباً فاضلاً. لم يفسده تدليل أبيه، بل كان نقيًّا تقيًّا. وقد ساءهُ أن يرى إخوته يأتون المحرَّمات، وحمل من أمرهم إلى أبيه ما أحزن قلبيهما! وعزم يعقوب أن يمنح البكورية ليوسف، وصنع له قميصاً ملوناً علامة على ذلك. ولكن أخوة يوسف حسدوه وأبغضوه. ولما قصَّ عليهم أحلامه ازدادوا أيضاً بُغضاً له.

كان يوسف يحلم أنَّه سيكون الرأس والرئيس ولكننا لا نرى ذلك في أول الأمر!

ها نحن نراه ينطلق - إطاعة لأمر أبيه - إلى حيث قيل له إنَّ إخوته يرعون. يبدو أنَّ غيبتهم طالت على أبيهم، وإنَّه شغل على سلامتهم حتى إنَّه ارتضى أن يُرسل يوسف المحبوب.

وكان إخوة يوسف يرعون على مسافة غير بعيدة وقد سلك

يوسف أقرب السُّبُل إلى ذلك المكان، فلما لم يجدهم سار إلى حيث ظنَّ أنَّهم ذهبوا، وضلَّت به الطريق وكان يخشى أنَّه يضيع في تلك المراعي الجبلية، لولا أنَّ أحد الرعاة هداه إلى حيث إخوته!

وأبصره إخوته من بعيد واستيقظت فيهم غيرتهم وكراهيتهم، وتآمروا على قتله والسخرية بأحلامه! ووصل يوسف وهو ينتظر قُبُلات، فإذا بهم يستقبلونه بأسنان مسنونة وعيون غاضبة، وامتدت أيديهم إليه فمزَّقت قميصه وطرحته أرضاً. وكانوا على وشك الفتك به لولا أنَّ أخاه رأوبين أنقذه من أيديهم. وأشار بأن يطرحوه في بئر جافة، ويتركوه ليموت دون أن تمتد أيديهم إلى سفك دمه!!

وكان رأوبين يقصد أن يختلس فرصة ينقذه فيها ويردّه إلى أبيه!

إنَّ العين تكاد تجمد وهي تبصر مدى قوة الشر في قلب الإنسان. إخوة يحاولون أن يفتكوا بأخيهم، لا لسبب إلَّا لأنَّ أباه يحبّه، ولأنَّه أبصر أحلاماً قصَّها عليهم بكل براءة. أُناس من البشر يتحوَّلون إلى وحوش ضارية لا يرقُّون لضعف أخيهم ولا يتأثرون لدموعه وتوسُّلاته. لا شك أنَّه طرح نفسه عند أقدامهم والتمس من هذا الأخ ثم من ذاك وذاك أن يُبقي على حياته، ولكنهم صاروا وحوشاً بقلوب من حجر. وقذف به أحدهم إلى البئر وهو يضحك ساخراً: «يا صاحب الأحلام أين أحلامك!؟»

وصرخ يوسف صرخة مروعة، وأحسَّ أنَّ عظامه قد ترضَّضت، وأنَّ جسمه كله قد أصيب بسهام حادة، وبكى ما شاء له البكاء، وأعول ذاكراً أباه وأخاه. أما هُم فجلسوا بالقرب من البئر يأكلون ويضحكون ويسمرون!

ومرَّت بالطريق قافلة من التجار الإسماعيليين في طريقها إلى مصر، وجِمالهم حاملة أطياب بلادهم. وومضت في رأس يهوذا فكرة طارئة، فقال لإخوته: «ما قولك إذا كنا نبيع أخانا عبداً للقافلة الذاهبة إلى مصر. نقذف به بعيداً عنَّا فنستريح منه ولا تكون يدنا عليه لأنَّه، بالرغم من كل شيء، أخونا ولحمنا.» وهتف إخوته هتافاً عالياً وهنَّأوه على رجاحة رأيه وسلامة تفكيره، وذهب بعضهم فأصعدوا أخاهم من البئر، وباعوه للقافلة عبداً بعشرين ديناراً.

يا له من مصير!

لقد رأى يوسف نفسه في أحلامه سيداً وملكاً!

فإذا به يفقد قميصه الملون ويُطرَح في البئر!

ثم يُباع عبداً لقافلة ذاهبة إلى مصر!

ورفع يوسف عينيه إلى فوق وكأنِّي به يبصر غير المنظور وهو يقول له: «لا تخف لأنَّي معك!

أنا معك.. أنا معك»!!

ووصلت القافلة إلى مصر و باعت بضاعها!

وباعت يوسف!!

باعته عبداً لفوطيفار وزير مصر!!

وهكذا انتهى طريق صاحب الأحلام إلى أن يكون عبداً!

على أنَّ الطريق لم ينته هنا. إن هنا حجراً واحداً ينتهي عنده جزء، سيتلوه جزء آخر، وينبغي أن نسير إلى المنتهى قبل أن نحكم على أحلام يوسف!

كان يوسف عبداً في بيت فوطيفار، كان عبداً في نظر الناس وفي نظر فوطيفار ولكنه كان في الحقيقة سيداً. كان الرَّب معه فكان رجلاً ناجحاً. لقد انتصر وهو في بيت فوطيفار على كل القوات التي أذلَّت غيره، ولو أعطينا النظرة الصحيحة لرأَينا يوسف سيداً ورأَينا سادته عبيداً!

فقد صار هو صاحب البيت بسبب اجتهاده وأمانته، ولم يكن سيده وسيدته إلَّا بعض أفراد ذلك البيت، يأكلون ويلبسون من يده!

بل إنَّ سيدته استهواها جماله وأذلَّتها الشهوات، فرفعت عينيها إلى العبد وأرادت منه أن يخون عهد الأمانة. وسعت في ذلك جهدها وشغلت كل ما تستطيع المرأة أن تشغله. حاولت أن تصطاده بجمالها وبملث كلامها، ولكنه دافع عن نفسه دفاعاً قوياً، ولما هاجمته يوماً هجوماً عنيفاً وأمسكته من قميصه ترك قميصه وهرب، وكأنَّه يعطي لذلك الرسول المثال الأول للقول الذي ألقاه بعد ألوف السنين، «أما الشهوات الشبابية فاهرب منها».

لم تكن التجربة التي واجهها يوسف حرباً سهلة، بل كانت حرباً عنيفة طويلة ماكرة، ونحن نراه ينتصر لأنَّه أحسن الدفاع. إنَّه لم يسخر من التجربة أو يستهين بها. إنَّه ينظر إليها كشرٍّ عظيم. لقد كان شاباً ومع ذلك فإنَّه لم يَدْعُ التجربة عبثاً، ولا مغامرة، ولا طيش شباب، بل دعاها شراً عظيماً يضطرب أمامه، خصوصاً وهو يعتبره شراً ضد الله، الذي يطلُّ عليه من عليائه ويراقب كل خفياته!

ثم هو لا يقف ليعابث التجربة بل يهرب منها كما رأينا!

وكان غضب «سيدته» عظيماً. لقد جرحها في صميم كبريائها، واحتقرها فأبغضته. انقلب ذلك الحُب الكبير إلى كراهية مخيفة، ورتَّبت أن تقذف به من حالق إلى أعماق الهاوية. ينبغي ألَّا يعيش. إذن لتصرخ وتتحدَّث إلى من في بيتها أنَّ «العبد العبراني» لم يكرم سيده أو بيت سيده فهو يهجم عليها، ويريد أن يعتدي عليها وينتهك عِرْضها، ولكنها تصده وإذ تصرخ مستنجدة يترك رداءه في يدها ويهرب!

ويأتي زوجها فتروي له قصة العبد، وهو ككل رجل أحمق، يثور بدون تأمّل. ولو أنَّه تمهَّل قليلاً لأبصر في القصة ثلمات كثيرة، ولكنه لا يتمهَّل. هل يجسر إنسان أن يرفع عينيه إلى زوجته، ذلك الملاك الطاهر؟؟! ليذهب يوسف إلى غير رجعة!

لكنه لا يأمر بقتله بل يكتفي بحبسه

وهنا نجد مجالاً كثيراً للتأويل والاستنتاج أوالرجوع إلى كتاب «التلمود» ليسهب في ما لم يسهب فيه الكتاب

فهل عفا عن قتله لأنَّه لم يصدِّق زوجته، ولم يكن يثق فيها كل الثقة، إذ كان يرى منها أحياناً ما يثير ريبته!؟؟

أم هل عفا عن قتله لأنَّه عطف عليه، فقد كان شاباً جميلاً وحيداً. وأميناً وقد تبارك بيت فوطيفار على يديه. وهو على ذلك رقيق ليس من طباعه العنف؟؟ وهبه رفع عينيه إلى زوجته فقد أخطأ ولكن لا إلى الحد الذي يستحق فيه القتل!

أم هل عفا عن قتله لأنَّ القضاة، كما يقول التلمود، حكموا ببراءته، ولكنهم رأوا أن يدينوه إبقاء على كرامة سيدة كبيرة!؟؟

لا نعلم لماذا فعل ذلك، ولكن هكذا فعل، وها نحن نرى

يوسف في نهاية الطريق في السجن!

نعم فقد انتهى أمر صاحب الأحلام إلى أن ينطرح على أرض السجن!

إلى أين انتهى طريق الاجتهاد؟

والولاء لله؟

والولاء للسيد؟

والعفَّة؟

إلى أين انتهى كل ذلك؟؟؟

إلى السجن!!!

لكن هل كان السجن حقاً آخر الطريق؟

كلَّا. إنه لم يكن إلَّا نهاية لإحدى المراحل، وقد بقي أمامنا الطريق مفتوحة بل إن يوسف السجين كان سيِّداً!

يكفي أنَّه كان يستطيع أن ينام بضمير مطمئن!

يكفي أنَّه لم يعمل ما يلوِّث صحيفته النقيَّة!

ولا ما يرسم غمامة في تاريخ بيته!

ولا ما يسيء إلى رجل ائتمنه!

بل يكفي أنَّه لم يعمل ما يسيء به إلى إلٰهه!

ونحن نراه ينبطح على أرض السجن ويرسل من صدره أنيناً شاكياً!

هل هذه يارب نهاية الأحلام؟ وهو يسمع من بعيد صوتاً يبدو أنه قريب جداً «أنا معك يا يوسف، لا تخف»!

وعاش يوسف في السجن!

ولكنه سجين غريب!!

لقد رأى فيه السَّجَّان ملاكاً لاسجيناً. إن نوراً يملأ وجهه ونعمة تملأ شفتيه فهو يسلِّمه كل شيء ويطمئن إلى إدارته!

منذ دخل يوسف إلى السجن صار السجن شيئاً آخر. لم يعد السَّجَّان يسمع الشتائم، والمشادات ومحاولات الهروب، وأصوات النواح. منذ دخل يوسف تحوَّل السجن من جحيم، إلى ما يقرب من النعيم. كان يوسف حينما يسير يلقي ظلالاً من نور ومحبة وسلام فإذا بالغليان والثورة والكراهة كل هذه تتلاشى. لاشك أنَّ ذلك الأسير كان شيئاً آخر!

وفي أحد الأيام أرسل فرعون الملك اثنين من عبيده مغضوب عليهما. كان لهما مركز كبير في القصر إذ كان أحدهما ساقي الملك الذي يشرب الملك من يده. والثاني الخبَّاز الذي يقدِّم له الخبز ويطهي له الطعام. وقد اُتُّهِمَ الاثنان بمحاولة قتل الملك بالسم - وقد أمر الملك بتسليمهما لوزيره الأكبر ريثما يرى في شأنهما ما يرى!

وطلب حافظ السجن من يوسف أن يولي السجينين الكبيرين شيئاً من العناية. ونحن نرى يوسف يوليهما كثيراً من العناية وهما يحسَّان بذلك، ويبهجهما أن يتولَّى أمر العناية بهما يوسف، وهما يستقبلانه في كل يوم بوجه مشرق وبابتسامة كبيرة. على أنَّهما استقبلاه في صباح ما بعبوس، وحاولا أن يبتسما فلم يستطيعا. وقد سألهما عن سبب ذلك، فحدَّثاه عن حلمين رأياها وهما لايعلمان تأويلهما، ويخشيان ما عسى أن يعلنه هذان الحلمان. وقال يوسف:

«حدِّثاني ما رأيتما، فإن لله تفسير الأحلام!»

تقدَّم كبير السُقاة وقال: رأيتُ في حلمي كرمةً، وفي الكرمة ثلاثة قضبان، وهي إذ أفرخت طلع زهرها، وأنضجت عناقيدها عنباً، وكانت كأس فرعون في يدي. فأخذت العنب وعصرته في كأس فرعون وأعطيت الكأس في يد فرعون!»

وصَمَتَ الساقي، وتطلَّع بقلقٍ إلى يوسف، ثم قال: «هذا هو حلمي فماذا عسى أن يكون؟» وخفض يوسف رأسه، وصعدت من صدره صلاة صامتة، وعيناه مغلقتان. ثم رفع رأسه، وقال للساقي: «لك التهنئة، فقد انتهت أيام بؤسك. الثلاثة القضبان هي ثلاثة أيام. في ثلاثة أيام أيضاً يرفع فرعون رأسك، ويردُّك إلى مقامك. فتعطي كأس فرعون في يده كالعادة الأولى حين كنتَ ساقيه!!»

وأشرق وجه الساقي وتهلَّلت أساريره، وتقدَّم من يوسف يحاول أن يقبِّل قدميه، وهو يقول: «آه يا سيدي ليت تعبيرك يصدق، إذن كنت شاكراً لك مدى الحياة. بل سأكون عبداً رقاً، بل إنِّي منذ الآن عبدك. قل لي كيف أرد جميلك ؟!!»

وأجاب يوسف: «لست أطلب منك شيئاً. كل ما أطلبه، أن تذكرني لدى سيدك، فتخرجني من هذا البيت، لأنِّي قد سُرِقت من أرض بعيدة. وهنا أيضاً لم أفعل شيئاً حتى وضعوني في السجن!!»

وقال الساقي: سأفعل، نعم سأفعل المستحيل حتى أُخرِجك. سأنطرح عند قدمي فرعون، وسأحدِّثه عنك، وعن روح الآلهة الذي فيك، وسأخبره عن تفسيرك لحلمي.. نعم سأفعل المستحيل لكي أُخرِجك. لن أنسى. كلَّا لن أنسى بل ثق إنِّي لن أستطيع أن

أنسى!!»

وعندئذٍ تقدَّم رئيس الخبَّازين إلى يوسف، وقال، وقد امتزجت في أساريره علائم القلق مع علامات الرجاء، «وأنا أيضاً رأيتُ في حلمي أنَّي أحمل ثلاثة سلال على رأسي. وفي السلِّ الأعلى من جميع طعام فرعون من صنعة الخباز. ورأيتُ الطيور تحوم حول السلِّ وتأكل من الطعام الذي فيه!!»

وصَمَتَ يوسف طويلاً، وبدت سحابة قاتمة في عينيه، وتجلَّى حزن عميق على وجهه!! واشتد قلق الخبَّاز وقال: «ربك لا تُطِل انتظاري. حدِّثني عن مصيري كيفما كان.» وقال يوسف بألم: «إنَّ حلمك يا صديقي لا يُبشِّر بخيرٍ فإنَّ الملك سيرفع رأسك عنك بعد ثلاثة أيام ويعلِّقك على خشبة، وتأكل الطيور لحمك عنك.» قال هذا وواسى الرجل بكلمات العطف والمحبة!!

وبعد ثلاثة أيام أمر فرعون بالإفراج عن السَّاقي، وردَّه إلى وظيفته. وحكم على الخبَّاز بقطع رأسه وتعليقه على خشبة.

وكان فرح الساقي طاغياً. ولم ينسَ أن يقبِّل يد يوسف قبل خروجه، ويؤكِّد له أنَّه لن ينساه. ولكنه حالما وقف أمام الملك نسى يوسف ووعده ليوسف!!

وهكذا بقي يوسف في السجن!

ورفع يوسف رأسه إلى السماء معاتباً. أهكذا ينساه ربُّه أيضاً؟ ولكن الله واساه وجاءته رسالة ربه عزاء لقلبه، كلَّا يا يوسف إنَّ الله لا ينسى صفيَّه!!

مرَّت سنتان كاملتان، ويوسف لا يزال سجيناً، وقد بدأ اليأس يتسرَّب إلى صدره ولكن الفرج جاءه من حيث لا يحسب!!

استيقظ فرعون صباح يوم مضطرباً!

وإذا اضطرب فرعون، فقد اضطربت زوجته وأهل بيته!

وإذا اضطربت أسرة فرعون، فقد اضطربت الحاشية!

وإذا اضطرب قصر فرعون، فقد اضطربت العاصمة!

وإذا اضطربت عاصمة فرعون، فقد اضطربت البلاد!

وشاع الاضطراب في كل مكان!!

لقد أبصر الملك حلماً.. بل حلمين أفزعاه!

وهوذا أحكم حكماء مصر يأتون ويسجدون عند قدمي الملك، ولكن الأمر أُغلِق عليهم. إنَّ حلمه غريب، لم يسبق أن رأى أحدهم نظير ذلك الحلم. لقد أبصر سبع بقرات طالعة من النهر حسنة المنظر وسمينة اللحم فارتعت في روضة. ثم هوذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها من النهر قبيحة النظر ورقيقة اللحم فوقفت بجانب البقرات الأولى على شاطىء النهر. فأكلت البقرات القبيحة المنظر والرقيقة اللحم البقرات السبع الحسنة المنظر والسمينة. وظلَّت بقرات هزيلة كما كانت، واستيقظ فرعون. ثم نام فحلم ثانية وهوذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد سمينة وحسنة. ثم هوذا سبع سنابل رقيقة وملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع السمينة الممتلئة. وبقيت سنابل رقيقة كما كانت، واستيقظ فرعون!!

فشل سَحَرة مصر وحكماؤها. لم يوجد بينهم من يعبِّر الحلم لفرعون. وكان ثمت اضطراب وشاع قلق! وهنا ذَكَرَ السَّاقي يوسف وتقدَّم إلى سيِّده وحدَّثه عن الغلام العبراني عبد رئيس

الشرط، وتعبيره للأحلام، وحدَّثه عن تعبير حلمه وحلم الخبَّاز.

وأمر الملك، فأسرعوا بيوسف من السجن، بعد أن حلق وأبدل ثيابه. وقال فرعون ليوسف: «حلمتُ حلماً وليس من يعبِّره، وأنا سمعت عنك قولاً أنَّك تسمع أحلام لتعبرها.» وأجاب يوسف جواباً يدل على تواضعه كما يدل على حكمته وحُسن تصرّفه قال: «ليس لي. الله يجيب بسلامة فرعون»!!

وروى فرعون حلميه ليوسف وطلب منه أن يفسِّرهما له، إذا كان ذلك ميسوراً!

وصلَّى يوسف لله، وجاءه الجواب من فوق!

قال يوسف: «إنَّ الحلمين هما في الحقيقة حلم واحد. فالبقرات السبع السمينة والسنابل السبع الممتلئة هي شيء واحد، هي سبع سنين شبع تأتي على مصر. والبقرات السبع النحيفة والسنابل السبع الملفوحة هي شيء واحد. هي سبع سنين جدب. ستأتي على البلاد سبع سنين تمتلىء مصر فيها بالغلَّات وتفيض بالخيرات. تم تعقبها سبع سنين تأكل الأخضر واليابس وتملأ الأرض بالموت.» وصمت يوسف قليلاً، وهو يلاحظ تأثير كلامه في وجه فرعون. فقد رأى القلق في عينيه وإن كان قد أبقى على ثباته. وهنا قال يوسف: «واذا سمح لي مولاي فإنِّي أرجو أن ينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ويجعله على أرض مصر ليجمع خمس غلة البلاد في سبع سني الشبع ويخزِّنها طعاماً في المدن وذخيرة لسبع سني الجوع!!

كانت المشورة ظاهرة البساطة ولكنها كانت رأياً من السماء. كيف لم يخطر هذا على بال فرعون وبال حاشيته؟! وابتسم الملك

لأول مرة، والتفت إلى حاشيته وقال: «هل نجد مثل هذا رجلاً فيه روح الله؟» ثم التفت إلى يوسف وقال: «بعدما أعلمك الله كل هذا ليس بصير وحكيم مثلك. أنت تكون على بيتي وعلى فمك يقبِّل جميع شعبي. نعم ستكون رأساً لمصر لا يعلو عنك إلَّا فرعون»!!

وخلع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف، وألبسه ثياب بوص، ووضع طوق ذهب في عنقه، وأركبه في مركبته الثانية ونادوا أمامه اركعوا!!

وهكذا بعد ثلاث عشرة سنة وصل يوسف أخيراً إلى العرش في طريق مملوء بالأشواك! وسنتركه الآن لنجتمع به مرات أخرى آتية!

٢٩
الخطية التي دُفِنَتْ في كنعان تستيقظ في مصر

«وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «حَقًّا إِنَّنَا مُذْنِبُونَ إِلَى أَخِينَا ٱلَّذِي رَأَيْنَا ضِيقَةَ نَفْسِهِ لَمَّا ٱسْتَرْحَمَنَا وَلَمْ نَسْمَعْ. لِذٰلِكَ جَاءَتْ عَلَيْنَا هٰذِهِ ٱلضِّيقَةُ»
(تكوين ٤٢: ٢١)

ملأ الحسد أولاد يعقوب!

وكان حسداً قوياً جارفاً لم يستطع كل ما في دمائهم من أصل طيب أن يقف في سبيله!

ولو كان الحسد كما يقولون، لأحرق الحسد كل أرض كنعان، فقد كان حسدهم ناراً من الجحيم!

حسد الأخوة أخاهم يوسف!

لم يطيقوا أن ينظروا إليه!

كان هو أصغرهم، ومع ذلك فقد أعطاه أبوه مقام الصدارة وميَّزه عليهم بالقميص الملون!

وثار ثائرهم!

كيف يكون ذلك؟

فلئن قُلنا إنَّ رأوبين لا يستحق الصدارة لأنَّه في ساعة طيش نجَّس فِرَاش أبيه، فإنَّ شمعون ولاوي حقيقان بها. وإن قُلنا إنَّ

شمعون ولاوي قد تلوَّثت أيديهما بالدم، فإنَّ يهوذا أولى بها!

لكن يعقوب لم يعبأ بجميع أبنائه!

وأعطى المقام الأول ليوسف الصغير!

ونظر الإخوة إلى أخيهم بمقت!

كم هو كريه.. كم هو سمج!!

إنَّه يتيه بجماله كما لو كان فتاة!

إنَّه لا يزيد عن فتاة، لا رجولة فيه!!

إنَّه يتحدَّث بنعومة كالنساء!

والعجيب أنَّه يحلم أنَّه سيكون رئيساً وملكاً!!

وجعل الحسد يتملَّك تلك القلوب، فإذا به ينقلب شجرة من أشجار جهنم، فيها كل ما في الجحيم من سموم!

وتحيَّن الإخوة فرصة يستريحون فيه منه!

وكأنَّ إبليس كان يستمع لهمس قلوبهم!

لأنَّه عندما أبصروه من بعيد، وهو منطلق ليسأل عن سلامتهم، وشوش في آذانهم أن هلمُّوا فاقتلوه وتخلَّصوا منه!!

وقبض الإخوة على أخيهم!

مزَّقوا قميصه الملون!

وقيَّدوه من يديه ومن رجليه!!

وقيل إنَّ شمعون كان المتقدِّم في ذلك، وإنَّه لطمه لطمات قوية، وركله بقدمه على بطنه وظهره ثم طرحه بعنف في البئر!!

ثم باعوه للإسماعيليين!

وهكذا اختفى يوسف عن أنظارهم!!

***

على أنَّ رأوبين عاد إلى البئر لينقذه ولم يكن في المكان ساعة أن باعوه، فلما لم يجده مزَّق ثيابه، ورجع إلى إخوته وقال: «الولد ليس موجوداً وأنا إلى أين أذهب؟»

وهنا استيقظت الخطية!

حرَّكت في الخطاة عاطفة الخوف!!

ماذا يقولون لأبيهم؟

وكيف يخفون جريمتهم؟

هل يقولون إنَّهم لم يبصروه؟

هل يدَّعون أنَّه ضلَّ في البرية؟

هل يتَّهمون اللصوص بالقبض عليه؟

جلسوا يتدارسون الموضوع، وهم يقلِّبون كل فكرة على مختلف وجوهها، فرفضوا فكرة عدم ذهاب يوسف في طريقهم، ورفضوا فكرة تيهانه في البرية، ورفضوا فكرة قبض اللصوص عليه.. واستراحوا نوعاً إلى فكرة فتك الوحوش به. لكن الفكرة كانت مفكَّكة من بعض نواحيها! إنَّ فتك الذئب به، وكيف علموا بذلك، وهل ضاعت معالم الجثة؟؟

ونبتت فكرة ماهرة في رأس أحدهم.

قيل إنَّه رأوبين. وقيل إنه يهوذا.

ماذا، لو أنَّهم ذبحوا جدياً، ولوَّثوا قميص يوسف بدمه. وأخذوا ذلك القميص إلى أبيهم؟

ماذا لو فعلوا ذلك؟

كانت الفكرة رائعة!

إنَّ يعقوب لن يميِّز بين دم الجدي ودم يوسف.

ولن يسأل أسئلة تفصيلية أخرى. لأن الإخوة لا يعلمون شيئاً عن الموضوع.

لقد وجدوا القميص في البرية، وهم يظنون أنَّه قميص أخيهم ولكنهم غير متأكدين!

كانت الفكرة قاسية!

كانوا يعلمون أنَّ قلب أبيهم سينكسر!

ولكنهم لم يتأثروا لذلك!

سيبكي يعقوب ردحاً من الزمن ثم يتعزَّى. وهكذا تموت خطيتهم وتُدفن في كنعان!

ونفَّذوا الخطَّة!

وحملوا القميص إلى أبيهم، وقالوا وجدنا هذا. حقِّق أقميص ابنك هو أم لا؟

وقبض يعقوب بيدين مرتعشتين على القميص وتحقَّقه، وصرخ كالطير الجريح، نعم هو قميص ابني. وحشٌ رديء أكله. افترس يوسف افتراساً!!

ومزَّق يعقوب ثيابه، ووضع مسحاً على حقويه، وناح نوح ثاكل على وحيده!

ونحن نتألم ولا شك مع يعقوب. لكن ما هذا. إننا نلاحظ وجوه لإخوة شاحبة كوجوه الأموات. إن الخطية التي دفنوها

ترفع رأسها وتطلُّ عليهم بوجهها الكالح. عندما قال يعقوب: «وحش رديء أكلهُ» أحسَّ كل منهم أنَّه يرسل الكلام إليهم. وعندما قال: «افترس يوسف افتراساً» خُيِّل إليهم أنَّه يتحدَّاهم - وعندما ناح تأثروا وبدأت الخطية تقرصهم وتلسعهم. ما أردأ الخطية إنَّها لا تموت!!

وقام جميع أبناء يعقوب وجميع بناته يحاولون أن يعزُّوه، ولكنه أبى أن يتعزَّى، وقال إنِّي أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية!

وبكى يعقوب وبكى!

وتقول التقاليد اليهودية إنَّه ظلَّ يبكي إلى أن فقد عينيه تماماً!!

وسارت الأمور كما تسير عادة، نسي القوم يوسف وأحلام يوسف. ودُفِنَت جريمة الإخوة. لقد ذهب يوسف ولن يعود. إنَّ بينهم وبينه ألوف الأميال. فاطمأنوا إلى أنَّ فعلتهم لن تكشف. سيموت يعقوب وإذ ذاك يضيع كل أثر لذلك الابن الذي أحبَّه؟

ومضت على ذلك عشرون سنة!

وها نحن نرى أبناء يعقوب يشدُّون الرحال إلى مصر ليشتروا قمحاً، فقد سمعوا أنَّ في مصر طعاماً. لم يسمعوا هم بالطبع أنَّ فرعون رأي حلماً، ولم يعرفوا أنَّ سجيناً في سجن رئيس الشرط فسَّر الحلم، فأخبر عن سبع سني شبع ستتلوها سبع سني جوع. ولم يسمعوا أنَّ الملك عيَّن ذلك السجين كبير وزرائه، ولم يسمعوا أنَّ ذلك السجين جمع في وقت الشبع خُمْس غلَّة مصر. ولم يسمعوا اسم ذلك السجين بالطبع، السجين الذي نعرفه نحن ونعرف قصته. كل ما سمعوه أنَّ في مصر طعاماً فهم يشدُّون الرحال إلى مصر ليشتروا قمحاً، لأن الجوع كان شديداً في كل البلاد!

وأبصرت مصر قافلة كبيرة من عبرانيين تسأل عن الرجل الموكل ببيع القمح. فأخذوهم إليه وكان الموكل هو صديقنا يوسف وإن كانت مصر تعرفه باسم صفنات فعنيح!! دخل الرجال في حضرته، فعرفهم، أما هم فلم يعرفوه، وحالما دخلوا انبطحوا على وجوههم إلى الأرض أمامه ساجدين. وتذكَّر يوسف أحلامه. ها هي تتحقق حرفياً. وجاشت في صدر يوسف شتى العواطف وكان أولها الانتقام. ها قد وقعوا تحت سلطانه. إنَّه يستطيع أن يسحقهم ويلاشيهم وهم يستحقون. غير أنَّ عواطف أخرى اعتلت في صدره، عاطفة المحبة والشفقة والصفح. برزت كل هذه العواطف معاً. وتداخلت الواحدة في الأخرى حتى اختلط على يوسف الأمر.. إنَّه يرغب أن يقتلهم ولكنه في نفس الوقت يتوق أن يقبِّلهم. يخطر بباله أن ينتقم، وفي نفس الوقت يمر الصفح قوياً في ذهنه. ونحن نرى في حديثه معهم ذلك المزيج العجيب من العواطف، فقد وجَّه إليهم الكلام بجفاء وقال لهم:

«من أين جئتم؟»

فأجابوا بخضوع: «لقد جئنا يا سيدي من أرض كنعان لنشتري قمحاً...»

ونظر إليهم يوسف بصرامة وقال: «لا. لا أصدِّق أنكم تأتون من كنعان»

ثم قال بخشونة: «جواسيس أنم!»

فقالوا له: «لا يا سيدي بل عبيدك جاءوا ليشتروا طعاماً. نحن جميعاً بنو رجل واحد نحن أمناء. ليس عبيدك جواسيس!»

فقال لهم: «كلَّا بل لتروا عورة الأرض جئتم!»

وازداد اضطرابهم لكن اضطرابهم كان أزيد مما تسببه التُّهمة. إنَّهم يستطيعون أن يبرِّروا أنفسهم بقليل من المنطق، فما بالهم يضطربون أزيد من اللازم، ويدخلون في تفاصيل لم يطلبها يوسف منهم؟ ما بالهم يتحدَّثون عن دقائق العائلة، «عبيدك اثنا عشر أخا. نحن بنو رجل واحد في أرض كنعان. وهوذا الصغير عند أبينا اليوم والواحد مفقود». ألسنا نرى الخطية تتحرك؟ اثنا عشر أخاً... الصغير عند أبينا اليوم والواحد مفقود؟! مع أنَّهم كان يجب أن يقولوا افترسه ذئب. لماذا يخشون أن يقولوا إنَّه مات؟ إنَّهم لا يعلمون أنَّهم يتحدثون مع يوسف. إنهم يتحدثون مع رجل غريب، ومع ذلك فإنَّهم لا يجسرون أن يعيدوا الكذبة. إنَّهم منزعجون!!

ولم يجدهم دفاعهم بل يبدو أنَّه عقَّد المشكلة أكثر، فهوذا يوسف يقول لهم، ذلك ما كلَّمتكم به قائلاً إنَّكم جواسيس أنتم. بهذا تمتحنون وحياة فرعون لا تخرجون من هنا إلَّا بمجيء أخيك الصغير إلى هنا. أرسلوا منكم واحداً ليجيء بأخيكم وأنتم تُحبَسون. فيُمتَحن كلامكم هل عندكم صدق وإلَّا فوحياة فرعون إنكم لجواسيس!

ثم أمر فحُبِسُوا ثلاثة أيام!!

لا تذكر القصة شيئاً عن حالتهم في الأيام الثلاثة، لكن هل نحتاج إلى أن نقرأ أو نسمع شيئا عن ذلك؟ لا بُدَّ أنَّهم ذكروا شرَّهم مع أخيهم وإن حاولوا أن يخفوا ذلك. لقد كان كل واحد يحاول أن يخفي الأمر عن الآخر، بل ربما حاول كل واحد أن يموِّه على نفسه. ها هم يحصدون أجرة الخطية بعد عشرين سنة!!

وفي اليوم الثالث، جاءهم يوسف وقد لان وجهه قليلاً، وقال افعلوا هذا واحيوا. أنا خائف الله. إن كنتم أمناء فليُحبس أخ واحد منكم في بيت حبسكم، وانطلقوا أنتم وخذوا قحاً لمجاعة بيوتكم، وأحضروا أخاكم الصغير إليَّ فيتحقق كلامكم!

ووافقوا على ذلك. لم يكن أمامهم اختيار. وكان الأخ المحبوس شمعون. وعندما تركوا أخاهم في بيت الحبس، أحسُّوا بضيقة عظيمة تثقل على قلوبهم، وقال بعضهم البعض حقاً إنَّنا مذنبون إلى أخينا الذي رأينا ضيقة نفسه لما استرحمنا ولم نسمع. لذلك جاءت علينا هذه الضيقة. وقال رأوبين ألم أكلِّمكم قائلاً لا تأثموا بالولد وأنتم لم تسمعوا. فهوذا دمه يُطلب!

ثم أمر يوسف أن تُملأ أوعيتهم قمحاً ورد فضة كل واحد إلى عدله سِرَّاً، وأن يُعطوا زاداً للطريق. ففعل لهم هكذا. فحملوا قمحهم على حميرهم ومضوا من هناك فلما فتح أحدهم عدله ليعطي عليقة لحماره رأي فضته وإذا هي في فم عدله. فقال لإخوته رُدَّت فضتي وها هي في عدلي فطارت قلوبهم وارتعدوا بعضهم في بعض قائلين ما هذا الذي صنعه الله بنا؟

ونحن قد نندهش عندما نلاحظ جزعهم. إنَّ وجود الفضة في فم أعدالهم لا يجوز أن يسبِّب لهم كل ذلك الجزع. على أنَّ الذي أطار قلوبهم شعاعاً لم يكن الفضة، بل الخطية الكامنة التي ظنوا أنَّهم دفنوها ونسوا أمرها. وها هي تذكِّرهم أنَّها لم تمت.. إنَّ الخطية والخوف توأمان!

ووصلوا إلى كنعان وحدثوا أباهم عما لاقوه من قسوة وعنت سيد الأرض، وكيف تحدَّث معهم بجفاء وحبسهم ثلاثة أيام. ثم

وافق على إطلاقهم وحبس شمعون واشترط أن يعودوا ومعهم أخوهم الصغير.

وكان جزع يعقوب عظيماً!

أعدمتموني الأولاد!

يوسف مفقود!

وشمعون مفقود!

وبنيامين تأخذونه!

صار كل هذا عليَّ!

وكان تأثُّر يعقوب بالغاً. وعلم الإخوة أنَّ لا فائدة من مناقشته في أمر ذهاب بنيامين معهم، على أنَّ رأوبين تقدَّم من أبيه قائلاً اقتل ابني إن لم أجيء به إليك سلِّمه بيدي وأنا أردَّه إليك. ونظر يعقوب إلى رأوبين حزيناً. إنَّ رأوبين الآن شيخ ولكنه يتحدث كطفل أحمق. إنَّه يكذب أو على الأقل يخدع نفسه. بل هبه يعني ما يقول فهل يرد، قتل ابنه، ابني. بل هل استطيع أن أقتل حفيدي.

لا. لا ينزل ابني معكم لأن أخاه قد مات، وهو وحده باق. فإن أصابته أذيَّة في الطريق التي تذهبون فيها تنزلون شيبتي بحزنٍ إلى الهاوية!

وفرغ القمح أو كاد!

وأحسَّ بيت يعقوب بالحاجة إلى الطعام!

وقال يعقوب لأولاده اذهبوا إلى مصر وابتاعوا لنا طعاماً. ولكنهم أعلنوه أنَّهم لا يستطيعون أن يذهبوا بدون أخيهم - ويعقوب يندهش من إخبارهم بأسرارهم وذكرهم لدقائق تلك

الأسرار. وهم يحاولون أن يبرِّروا أنفسهم ويضعوا اللوم على سيد مصر. وفي الحق إنَّ إجاباتهم كان سببها جزعهم الناشيء من خطيتهم لا من أسئلة يوسف!

وتحدَّث يهوذا إلى أبيه!

أرسِل الغلام معي لنقوم ونذهب ونحيا ولا نموت نحن وأنت وأولادنا جميعاً. أنا أضمنه، من يدي تطلبه. إن لم أجيء به إليك وأوقفه قدامك أصر مذنباً إليك كل الأيام!

ولم يجد يعقوب بُدَّاً من الإذعان. فقال إن كان هكذا فافعلوا هذا. خذوا من أفخر جني الأرض في أوعيتكم وأنزلوا للرجل هدية قليلاً من البلسان وقليلاً من العسل وكثيراء ولاذنا وفستقاً ولوزاً. وخذوا فضة أخرى في أياديكم والفضة المردودة في أفواه عدالكم ردُّوها في أياديكم. لعلَّه كان سهواً

ثم تنهَّد بألم وقال وخذوا أخاكم!

وقوموا ارجعوا إلى الرجل!

والله القدير يعطيكم رحمة أمام الرجل حتى يطلق لكم الآخر وبنيامين!

ولم يستطع هنا أن يداري جزعه فاضت مدامعة وقال، وأنا إذا عدمت الأولاد عدمتهم!

كانت كل كلمة من كلمات أبيهم سهماً مبرياً يخترق قلوبهم. إنَّهم هُم سبب كل هذا. إنَّ خطيتهم التي ارتكبوها منذ عشرين سنة تتطلب أجرتها. وكلَّما ظنُّوا أنَّهم فرغوا منها إذا بها تعود مرة أخرى! ما أردأ الخطية. إنَّها خاطئة جداً!

وعاد الإخوة إلى مصر!

وأدخلوهم إلى بيت يوسف!

وهنا ثار خوفهم

لماذا يأخذوننا إلى بيت الرجل؟

لم يخطر ببالهم أنَّهم مدعوُّون لوليمة، بل ظنُّوا أن ذلك بسبب الفضة المردودة ليهجم عليها ويقع بنا ويأخذنا عبيداً وحميرنا. ولماذا يخطر ذلك ببالهم؟ وهل يوسف في حاجة إلى عبيد وحمير؟ ألم يروا بأعينهم أنَّ الرجل سيد كل أرض مصر؟ إنَّها الخطية التي تشيع الخوف حيث لا خوف!

وتقدَّموا إلى الرجل الموكل على بيت يوسف، استمع ياسيدي إننا قد نزلنا أولاً لنشتري طعاماً، وكان لما أتينا إلى المنزل إننا فتحنا عدالنا وإذا فضة كل واحد في فم عدله. فضتنا بوزنها، فقد رددناها في أيادينا. وأنزلنا فضة أخرى في أيادينا لنشتري طعاماً. لا نعلم من وضع فضتنا في عدالنا!

وطمأنهم الرجل بل كلَّمهم كلاماً غريباً، قال لهم سلام لكم. لا تخافوا. إلٰهكم وإلٰه أبيكم أعطاكم كنزاً في عدالكم. فضتكم وصلت إليَّ!

ثم أراد أن يزيد اطمئنانهم فأحضر لهم شمعون

وأعطاهم ماء ليغسلوا أرجلهم!

واعطى عليقاً لحميرهم!

وأخبرهم أنَّهم سيتناولون الطعام على مائدة السيد. إن اسمه صفات فعنيح!

فهل اطمأنوا تماماً؟

بل لا يزال القلق يساورهم. إن كل شيء يؤكِّد لهم أنهم في أمان، ولكنهم غير مطمئنين. مرة أخرى تنفث الخطية سمومها، سموم القلق والخوف. ها هم يجهِّزون الهدية. وها هم يسجدون أمام يوسف باضطراب، وهو إذ يرى بنيامين يسأل عنه وعن أبيه ويتركهم ليبكي من تأثره!

وتسير الأمور معهم على عكس ما ظنُّوا!

إنَّ الأمير يكرمهم إكراماً عظيماً!

ثم يرسلهم بعدال مملوءة!

وهم يسيرون بابتهاج. لقد عادوا كلهم إلى أبيهم الشيخ!

لكن ما هذا؟

إنَّ عبد يوسف يقود فرقة من الشرطة وهو يأمرهم بالوقوف!

وهنا بلغ اضطرابهم أقصى حد!

- ماذا ياسيدي؟

- لماذا جازيتم شرَّاً عوضاً عن خير، لقد سرقتم كأس سيدي وهو يتفاءل به. أسأتم في ما صنعتم!

- نحن يا سيدي. نحن نسرق الكأس؟

أنت تعلم إننا رددنا الفضة التي وجدناها في أفواه عدالنا. حاشا لعبيدك أن يفعلوا مثل هذا الأمر. نحن؟ نحن نسرق من بيت سيدك فضة أو ذهباً. اسمع. إنَّ الذي يوجد الكأس معه من عبيدك يموت، ونحن أيضاً نكون عبيداً لسيدي.. وقال الرجل: كلَّا إنَّ الذي يوجد معه الكأس يكون لي عبداً وأما أنتم فتكونون

أبرياء!

وأنزل القوم عدالهم وجعل العبد يبحث من الكبير حتى وصل إلى بنيامين.

وقد وُجِدَت فضة كل واحد في فم عدله، ولكن الرجل لم يهتم بذلك. فلما جاء إلى عدل بنيامين وجد الكأس. ونحن نعلم أنَّ الأمر كان مُرتَّباً بأمر يوسف!!

وكانت صدمة هائلة للإخوة!

مزَّقوا ثيابهم وعادوا إلى مصر!

وأمام يوسف وقعوا على الأرض.

وقال يهوذا ماذا نقول لسيدي. ماذا نتكلَّم وبماذا نتبرَّر. الله قد وجد إثم عبيدك. ها نحن عبيد لسيدي نحن والذي وُجِد الكأس في يده جميعاً. كان يهوذا يعترف بذنب قديم. إنَّه يعلم يقيناً أنَّ بنيامين لم يسرق الكأس، و يعلم أنَّهم لم يأثموا في حق صفنات فعنيح، ولكنه يعترف بأثم أتوه في حق يوسف «الله قد وجد إثم عبيدك!»

وتقدَّم يهوذا من يوسف يدافع عن بنيامين، أو على الأصح يدافع عن أبيه يعقوب، ويختم حديثه بالقول: فالآن متي جئت إلى عبدك أبي والغلام ليس معنا ونفسه مرتبطة بنفسه. يكون متى رأى أن الغلام مفقود أنَّه يموت فينزل عبيدك شيبة عبدك أبينا بحزن إلى الهاوية لأن عبدك ضمن الغلام لأبي قائلاً إن لم أجئ به إليك أصر مذنباً إلى أبي كل الأيام. فالآن ليمكث عبدك عوضاً عن الغلام عبداً السيدي ويصعد الغلام مع إخوته. لأني كيف أصعد إلى أبي والغلام ليس معي؟

يا له من دفاع!!

ولكننا نحسّ أنَّ قوة ذلك الدفاع مستمدة لا من الضمان وحده بل من التوبة ألسنا نراه يفتدي أخاه بنفسه؟

منذ عشرين سنة باع يهوذا أخاه بعشرين ديناراً!!

وهو اليوم يريد أن يكفِّر عن خطيته!

فيشتري أخاه!

نعم يشتريه بنفسه!

وهنا يحدث أمرٌ من تلك الأمور التي تُعتَبر فاصلة في التاريخ. يصرخ صفنات فضيح، أخرجوا كل إنسان عني. فخرج الجميع ما عدا إخوته. وقال بالبكاء والنشيج:

أنا يوسف!!!

ولو أن القصة كانت تختلف قليلاً عما حدثت، لانطلق الأخوة نحو أخيهم المفقود يقبِّلونه!

إن أخاهم المفقود موجود!

وهو سيد أرض مصر!

ولكنهم يصمتون صمت القبور ويتجلي ارتياعهم مخيفاً. ويرى يوسف ويعلم وهو يعالج الآن الخطية علاجها الصحيح. إنَّ الخطية لا تُدفن بالنسيان أو بالخديعة. إنَّها تُدفَن بالصفح والغفران. قال يوسف لإخوته: تقدموا إِلَيَّ. أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر...!! يا لها من كلمات تكشف الخطية فتظهرها في شرِّ صورها. أخوكم... بعتموه! لكن يوسف لا يحقد على إخوته. إنَّه يصفح. إنَّ الأمر تم بتدبير الله لحفظ حياتهم وحياة العالم. إنَّ الله

هو الذي أرسله إلى مصر وهو قد جعله رأساً لفرعون وسيداً لكل بيته ومتسلِّطاً على كل أرض مصر. وهو يطلب منهم أن يذهبوا إلى كنعان ويرجعوا بأبيهم وبيت أبيهم لكي يعولهم في مصر لأن الجوع سيستمر أيضاً خمس سنوات أخرى!

ويحس الأخوة بقبلات الصفح. ولكن تلك القبلات أيضا كانت تشوي قلوبهم. ما أردأ الخطية حتى بعد الصفح!

اطمأن الأخوة!

عُولجَت الخطية علاجها الصحيح!

فهل ذهبت كل آثارها؟

بل بقيت تلك الآثار ... وستبقى!

ونحن نرى تلك الأثار ظاهرة في قلقهم وهم يتحدثون مع أبيهم عن يوسف الحي!

ومع أن يعقوب لا يتكلَّم عن يوسف المفقود، وكيف فُقِدَ، فَقَدْ بدا أنَّه عرف ولو أنه آثر أن يسكت! إلى أن اعترف الأبناء له يوماً. وبعد أن سافروا إلى مصر وعاشوا مدة في كنف يوسف، مات يعقوب. وهنا أيضاً استيقظ خوفهم، ونحن نراهم بعد دفن أبهم ينبطحون على الأرض أمام يوسف، وهم يقولون آه، اصفح عن ذنب إخوتك وخطيتهم فإنَّهم صنعوا بك شراً. فالآن اصفح عن ذنب عبيد إلٰه أبيك!!

هل هناك شيء أقوى من الخطية؟

نعم. الغفران!!

٣٠
يعقوب يخاطب الأسباط قبل موته

«جَمِيعُ هٰؤُلَاءِ هُمْ أَسْبَاطُ إِسْرَائِيلَ ٱلِٱثْنَا عَشَرَ. وَهٰذَا مَا كَلَّمَهُمْ بِهِ أَبُوهُمْ وَبَارَكَهُمْ. كُلُّ وَاحِدٍ بِحَسَبِ بَرَكَتِهِ بَارَكَهُمْ.»
(تكوين ٤٩ : ٢٨)

كان يعقوب يقترب من النهاية وقد بلغ المئة والسابعة والأربعين. وقد صدق عليه حرفياً قول النبي: «وَهُوَ وَقْتُ ضِيقٍ عَلَى يَعْقُوبَ، وَلٰكِنَّهُ سَيُخَلَّصُ مِنْهُ»!

ودعا يعقوب بنيه وقال:

ٱجْتَمِعُوا لِأُنْبِئَكُمْ بِمَا يُصِيبُكُمْ فِي آخِرِ ٱلْأَيَّامِ. ٱجْتَمِعُوا وَٱسْمَعُوا يَا بَنِي يَعْقُوبَ!

رأوبين:

أنت بكري! قوَّتي! وأول قدرتي! فضل الرفعة! وفضل العز! فائراً كالماء لا تتفضل! لأنَّك صعدت على مضجع أبيك! حينئذ دنَّسته!!!س

شمعون ولاوي:

أخوان! آلات ظلم سيوفهما! في مجلسها لا تدخل نفسي!

بمجمعها لا تتحد كرامتي لأنَّهما في غضبهما قتلا إنساناً، وفي رضاهما عرقبا نوراً! ملعون غضبهما فإنَّه شديد، وسخطهما فإنَّه قاسٍ! أُقَسِّمُهُمَا في يعقوب، وأفرقهما في إسرائيل!

يهوذا:

إيَّاك يحمد إخوتك! يدك على قفا أعدائك! يسجد لك بنو أبيكّ! يهوذا جرو أسد! من فريسة صعدت يا ابني! جثا وربض كأسدٍ وكلبوة! من ينهضه!

لا يزول قضيب من يهوذا! ومشترع من بين رجليه!! حتى يأتي شيلون!! وله يكون خضوع شعوب!! رابطاً بالكرمة جحشه وبالجفنة ابن إتانه! غسل بالخمر لباسه وبدم العنب ثوبه! مسود العينين من الخمر! ومبيض الأسنان من اللبن!

زبولون:

عند ساحل البحر يسكن! وهو عند ساحل السفن! وجانبه عند صيدون!

يساكر:

حمار جسيم!!! رابط بين الحظائر! فرأى المحل أنه حسن! والأرض أنَّها نزهة!!! فاحنى كتفه للحمل! وصار للجزية عبداً!

دان:

يدين شعبه! كأحد أسباط إسرائيل! يكون دان حيَّة على الطريق! أفعواناً على السبيل! يلسع عقبي الفرس! فيسقط راكبه إلى الوراء! لخلاصك انتظرت يارب!!!

جاد:

يَزْحَمُهُ جَيْشٌ! وَلٰكِنَّهُ يَزْحَمُ مُؤَخَّرَهُ!

أشير:

خبزه سمين! وهو يعطى لذات ملوك!

نفتالي:

أَيِّلَةٌ مُسَيَّبَةٌ! يُعْطِي أَقْوَالًا حَسَنَةً!

يُوسُفُ:

غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ، غُصْنُ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ عَلَى عَيْنٍ. أَغْصَانٌ قَدِ ٱرْتَفَعَتْ فَوْقَ حَائِطٍ. فَمَرَّرَتْهُ وَرَمَتْهُ وَٱضْطَهَدَتْهُ أَرْبَابُ ٱلسِّهَامِ. وَلَكِنْ ثَبَتَتْ بِمَتَانَةٍ قَوْسُهُ، وَتَشَدَّدَتْ سَوَاعِدُ يَدَيْهِ. مِنْ يَدَيْ عَزِيزِ يَعْقُوبَ، مِنْ هُنَاكَ، مِنَ ٱلرَّاعِي صَخْرِ إِسْرَائِيلَ، مِنْ إِلَهِ أَبِيكَ ٱلَّذِي يُعِينُكَ، وَمِنَ ٱلْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ٱلَّذِي يُبَارِكُكَ، تَأْتِي بَرَكَاتُ ٱلسَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَبَرَكَاتُ ٱلْغَمْرِ ٱلرَّابِضِ تَحْتُ. بَرَكَاتُ ٱلثَّدْيَيْنِ وَٱلرَّحِمِ. بَرَكَاتُ أَبِيكَ فَاقَتْ عَلَى بَرَكَاتِ أَبَوَيَّ. إِلَى مُنْيَةِ ٱلْآكَامِ ٱلدَّهْرِيَّةِ تَكُونُ عَلَى رَأْسِ يُوسُفَ، وَعَلَى قِمَّةِ نَذِيرِ إِخْوَتِهِ!

بنيامين:

ذئب يفترس! في الصباح يأكل غنيمة وفي المساء يقسم نهباً!

٣١

صفنات فعنيح

«وَدَعَا فِرْعَوْنُ ٱسْمَ يُوسُفَ «صَفْنَاتَ فَعْنِيحَ»
(تكوين ٤١ : ٤٥)

قليلون هم الذين يعرفون «الاسم» وإن كُنَّا كُلّنا نعرف الشخص. إنَّ اسم صفنات فعنيح غريب على آذان الأكثرية منا، مع أنَّه اسم صديقنا وابن صديقنا يوسف بن يعقوب. أطلقهُ عليه فرعون، ومعناه «حافظ الحياة!»

وقد زوَّجه الملك من الأميرة أسنات ابنة فوطيفارع. كاهن أون. وهكذا اندمج يوسف في الأُسرات الأرستقراطية وولد ولدين هما منسَّي وأفرايم!!

وقد دعا ابنه البكر منسَّي، لأنَّ الله أنساه كُلَّ تعبه. وإن كان البعض يقول إنَّه دعاه كذلك لأنَّه أراد أن ينسى ماضيه كله!

فهل استطاع أن ينسى؟

لا شك أنَّه لم ينسَ ولم يستطع أن ينسى. لقد تزوَّج من ابنة كاهن أون ولكنَّه ظلَّ أميناً لإلٰهه وإلٰه أبيه، وربَّى بيته في مخافة الله. وهو يقول لإخوته فيما بعد: «إنِّي رَجُلٌ خائف الله.» وقبل موته أوصى إخوته ألَّا يتركوا عظامه في مصر، بل ينقلوها معهم إلى كنعان!

لقد عاش في مصر، وتكلَّم لغة مصر ولكنه لم ينسَ كنعان!

ويأخذ البعض عليه أنَّه، وهو صاحب السُّلطان في مصر، لم يفكِّر في أبيه وفي أخيه. وإنَّه عندما أبصر إخوته تنكَّر لهم. وإنَّ كل ما فكَّر فيه عندما رآهم أن يدبِّر أمر مجيء أخيه. وإنَّه عندما جاء أخوه أراد أن يحجزه عنده ويطلقهم.

ونحن لا نستطيع أن نحكم عليه في ذلك لأننا لا نملك كل الوثائق. ولكننا نستطيع أن نؤكِّد أنَّه ظلَّ أميناً لبيته بدليل أنَّه دعاهم ليقيموا معه في مصر!

وليس يستطيع أحدُ أن يصف ساعة اللقاء بين يوسف وأبيه، لقد كانت ساعة فاض فيها السرور حتى لم يمكن احتماله، فرفع كل منهما صوته و بكى. وتقول بعض التقاليد إنَّ يوسف لمَّا أنَّ أباه أُصِيب بالعمى من كثرة البكاء عليه، أرسل لأبيه قميصه وطلب من إخوته أن يطرحوا القميص على وجه أبيه . فلما طرحوه ارتدَّ بصيراً، ورأى الهدايا التي أرسلها إليه!!

كذلك كان يوسف نبيلاً كريم النفس لأنَّه وهو الأمير الخطير لم يخجل من أبيه وإخوته. فاستأذن في تقديمهم للملك معلناً أنَّهم أبوه وإخوته!

لقد كانوا يملكون ثروة. ولكن الجوع طحن كل ذي ثروة. ثم أنَّهم كانوا يجهلون كل شيء عن الحضر وتقاليده وكان سكان المدن يسخرون من عادات وتصرُّفات أهل البادية. أما يوسف فأكرم أباه وأكرم إخوته، ولم يخجل من ثيابهم ولا من كلامهم وتصرُّفهم!

وعال يوسف أباه وإخوته!

وكان يزور أباه بين الفينة والفينة!

واشتد المرض على يعقوب فذهب يوسف لزيارته. وتشدَّد يعقوب لما علم بمجئ يوسف وجلس على السرير. وبدأ يعقوب حديثه مع يوسف بذكر بركة الله له. قال: «الله القادر على كل شيء ظهر لي في لوز، في أرض كنعان وباركني. وقال لي: ها أنا أجعلك مثمراً وأكثرك وأجعلك جمهوراً من الأمم وأعطي نسلك هذه الأرض من بعدك. ملكاً أبدياً.» وخلص يعقوب من ذلك إلى طلب غريب قد لا نفهمه في أول الأمر. ولكننا إذ نتأمل فيه نرى السرَّ الكامن خلفه. قال: «والآن ابناك المولودان لك في أرض مصر قبلما أتيتُ إليك وهما أفرايم ومنسَّى كرأوبين وشمعون يكونان لي». وأضاف إنَّه حين عاد من فدان آرام ماتت راحيل على يديه ودفنها في أفراتة. ولعلَّه قصد أنَّ راحيل لو طالت حياتها لولدت بنين أيضاً كان يمكن أن يكونوا رؤساء أسباط. ولذلك فهو يعوِّض عن ذلك بأن يُعطي يوسف نصيب اثنين أو نصيب ثلاثة كما يظنُّ البعض. فيكون سبط يوسف ويضمُّ أولاده الآخرين وسبط منسَّى وسبط أفرايم!

ونحن إذا دقَّقنا نرى السرَّ الكامن خلف كلام يعقوب. فإنَّه من سنين طويلة عندما كان يوسف غلاماً أراد أن يمنحه خلافة الزعامة ويعطيه حقّ البكورية. فصنع له القميص الملون، وها هو اليوم يعطيه هذا الحق بأن يجعل له نصيب اثنين بين إخوته!!

ورأى يعقوب ابني يوسف فقال من هذان. وأجاب يوسف إنَّهما ابناي اللذان أعطاني الله ههنا. فطلب أن يقدِّمهما إليه ليباركهما. فقرَّبهما إليه فقبَّلهما واحتضنهما وشكر الله شكراً فائضاً. إنَّه لم يكن يحلم أن يرى يوسف وها هو يراه ويرى نسله أيضاً. ويوسف يبلغ

به التأثر حدَّه فيُخرج ابنيه من بين ركبتيه ويسجد إلى الأرض!

ويمسك يوسف بولديه ويوقفهما الواحد عن يمين أبيه والآخر عن يساره. ويمد يعقوب يديه متعارضتين فيضع يمينه على أفرايم ويساره على منسَّى وباركهما وقال: «الله الذي صار أمامه أبواي إبراهيم وإسحاق، الله الذي رعاني منذ وجودي إلى هذا اليوم، الملاك الذي خلَّصني من كل شرٍّ يبارك الغلامين. وليدع عليهما اسمي واسم أبوي إبراهيم وإسحاق وليكثرا كثيراً في الأرض»

وظنَّ يوسف أنَّ أباه أخطأ في وضع يديه فأراد أن يحوِّلها ليضع اليُمني على رأس منسَّى قائلاً إنه البكر. ولكن أباه رفض وقال: علمت يا ابني علمت. هو أيضاً يكون شعباً وهو أيضاً يصير كبيراً ولكن أخاه الصغير يكون أكبر منه ونسله يكون جمهور من الأمم!!

ولم يكتفِ يعقوب بما أعطى ليوسف فقال: «ها أنا أموت ولكن الله سيكون معكم ويردُّكم إلى أرض أبائكم، وأنا قد وهبت لك سهماً واحداً فوق إخوتك أخذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي!

وعاهد يعقوب أولاده أن يدفنوه عند آبائه في المغارة التي في حقل عفرون الحثي حيث دُفِنَ إبراهيم وسارة وإسحاق ورفقة وليئة!

ومات يعقوب!

وبكى يوسف على جثمانه طويلاً. ثم أمر عبيده الأطباء أن يحنِّطوه فحنَّطوه. وكمل له أربعون يوماً... وبكى عليه المصريون سبعين يوماً. واستأذن يوسف من فرعون أن يمضي ويدفن أباه،

وكانت جنازة كبيرة!

ولما عادوا من دفن يعقوب خشى أولاده أنَّ يوسف يضطهدم ويردُّ عليهم جميع الشرِّ الذي صنعوه به، فوسَّطوا له من يقول: «أبوك أوصى قبل موته قائلاً: هكذا تقولون ليوسف، آه اصفح عن ذنب إخونك وخطيَّتهم، فإنَّهم صنعوا بك شرَّاً، فالآن اصفح عن ذنب عبيد إلٰه أبيك». ويبدو من هذا أنَّ أبناء يعقوب سبق أن اعترفوا لأبيهم بما صنعوا، وأنّ يعقوب طمأنهم أنَّ يوسف لن يسيء إليهم. واطمأن الإخوة إلى أن اشتدَّ المرض على يعقوب فتكلَّموا أمامه عن خوفهم وعاد يعقوب يطمئنهم وكلَّف بعضهم أن يقولوا إنَّه أوصى قبل موته بطلب استمرار صفحه. وتأثر يوسف إلى حدِّ البكاء. وأتى إخوته أيضاً ووقفوا أمامه وقالوا: «ها نحن عبيدك». فقال لهم يوسف: «لا تخافوا لأنَّه هل أنا مكان الله. أنتم قصدتم لي شرَّاً. أما الله قصد به خيراً لكي يفعل كما اليوم ليحي شعباً كثيراً، فالآن لا تخافوا، أنا أعولكم وأولادكم»، فعزَّاهم وطيب قلوبهم!

وعاش يوسف مئة وعشر سنين ورأى أحفاده وأبناء أحفاده، ومات شيخاً وشبعان أيام!

تُرَى هل استمر يوسف يحتل وظيفته الرئيسية في حكومة مصر؟ لا نظن. فقد تطوَّرت الأمور السياسية في البلاد وجاءت أسرة جديدة للحُكم، ولكن يوسف ظلَّ متمتِّعا بمركزه الأدبي إذ لم تكن مصر قد نسيت بعد الرجُل الذي جمع الطعام فحفظ الحياة لمصر كلها!

كلَّا لم تنسَ مصر صفات فنيح!!

«فَطَرَدَ ٱلْإِنسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ ٱلْكَرُوبِيمَ، وَلَهِيبَ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ ٱلْحَيَاةِ.» (تكوين ٣: ٢٤)

موت هابيل

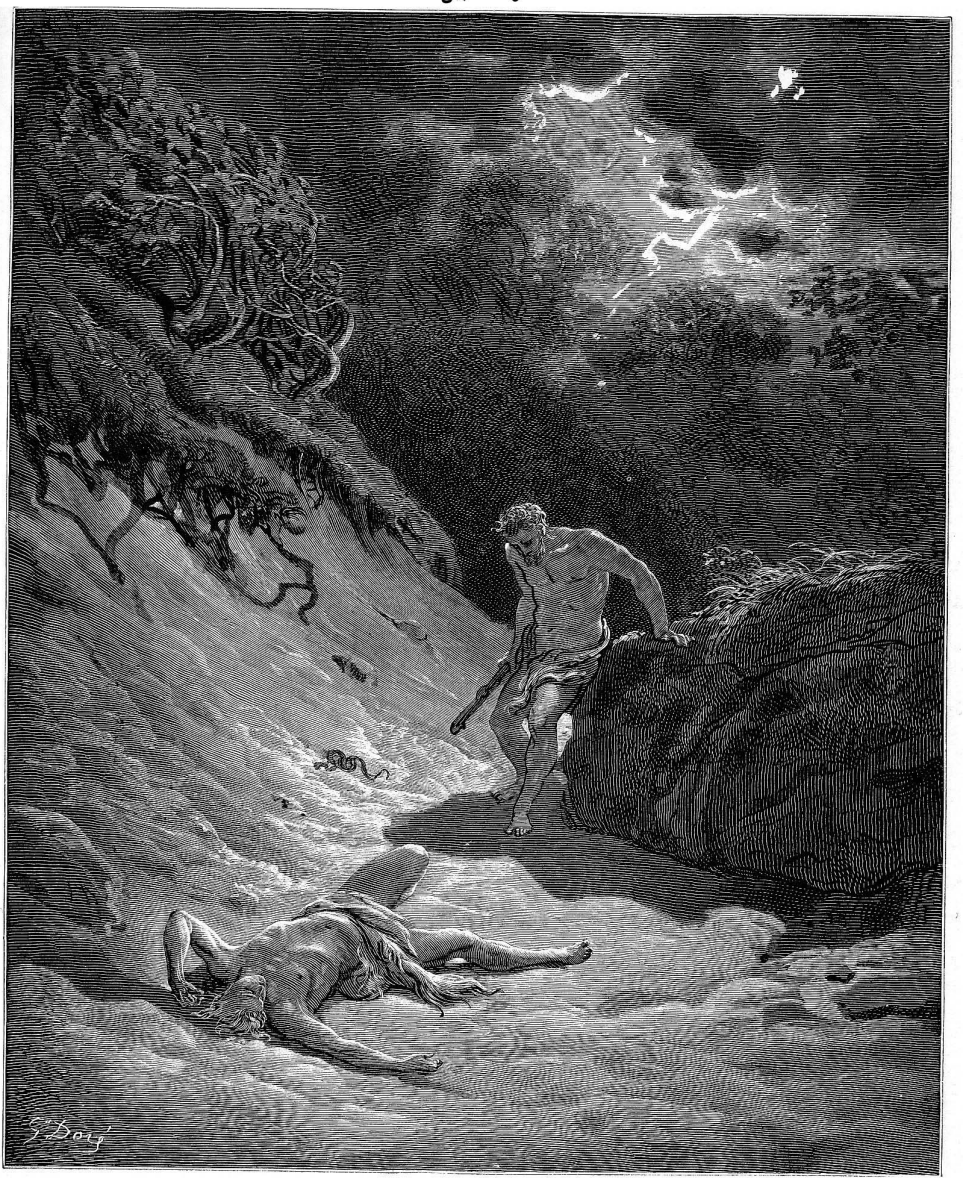

«وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي ٱلْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ. ٩ فَقَالَ ٱلرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لَا أَعْلَمُ! أَحَارِسٌ أَنَا لِأَخِي؟» (تكوين ٤: ٨ و٩)

الطوفان *by Gustave Doré*

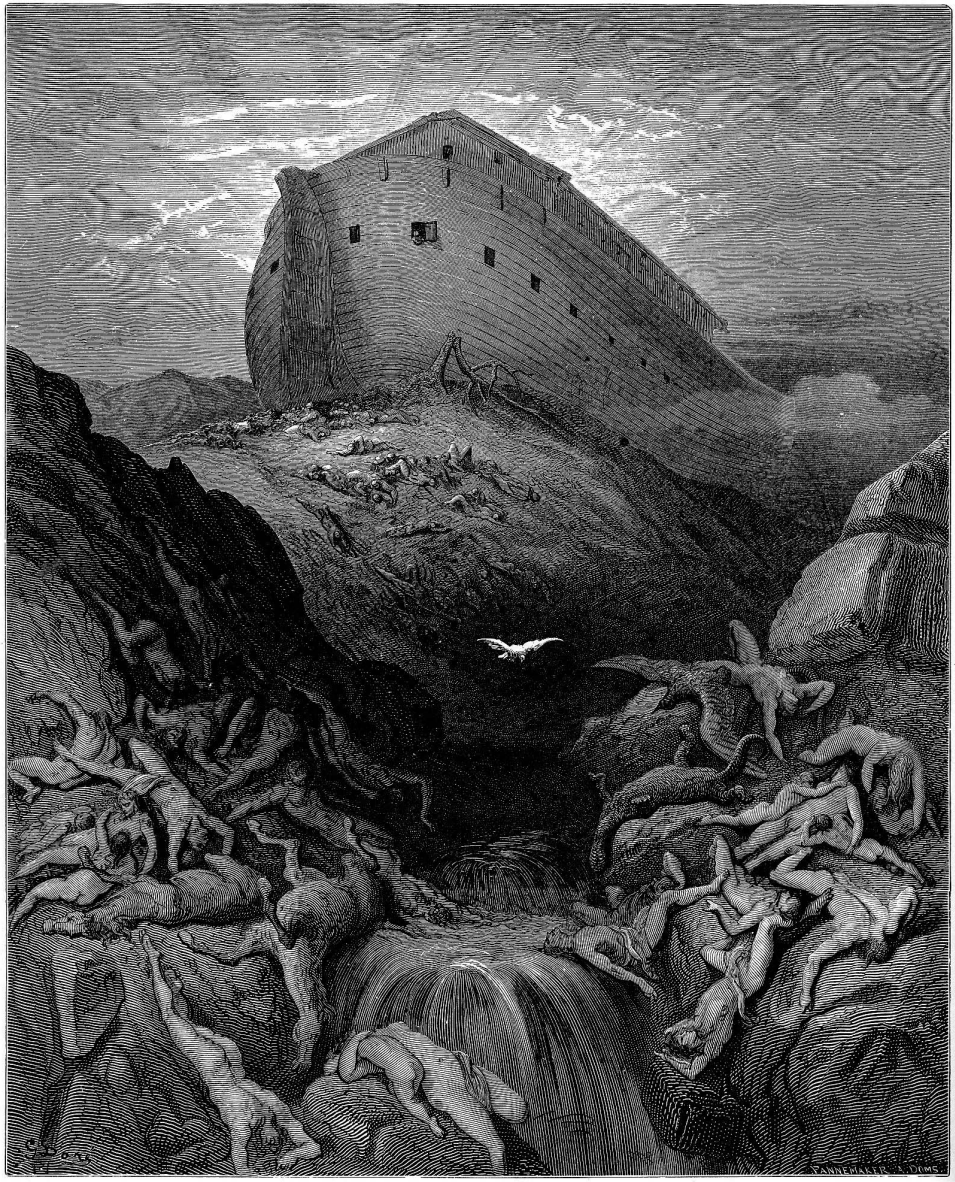

«فَأَتَتْ إِلَيْهِ ٱلْحَمَامَةُ عِنْدَ ٱلْمَسَاءِ، وَإِذَا وَرَقَةُ زَيْتُونٍ خَضْرَاءُ فِي فَمِهَا. فَعَلِمَ نُوحٌ أَنَّ ٱلْمِيَاهَ قَدْ قَلَّتْ عَنِ ٱلْأَرْضِ» (تك ٨: ١١)

هاجر وإسماعيل *by Gustave Doré*

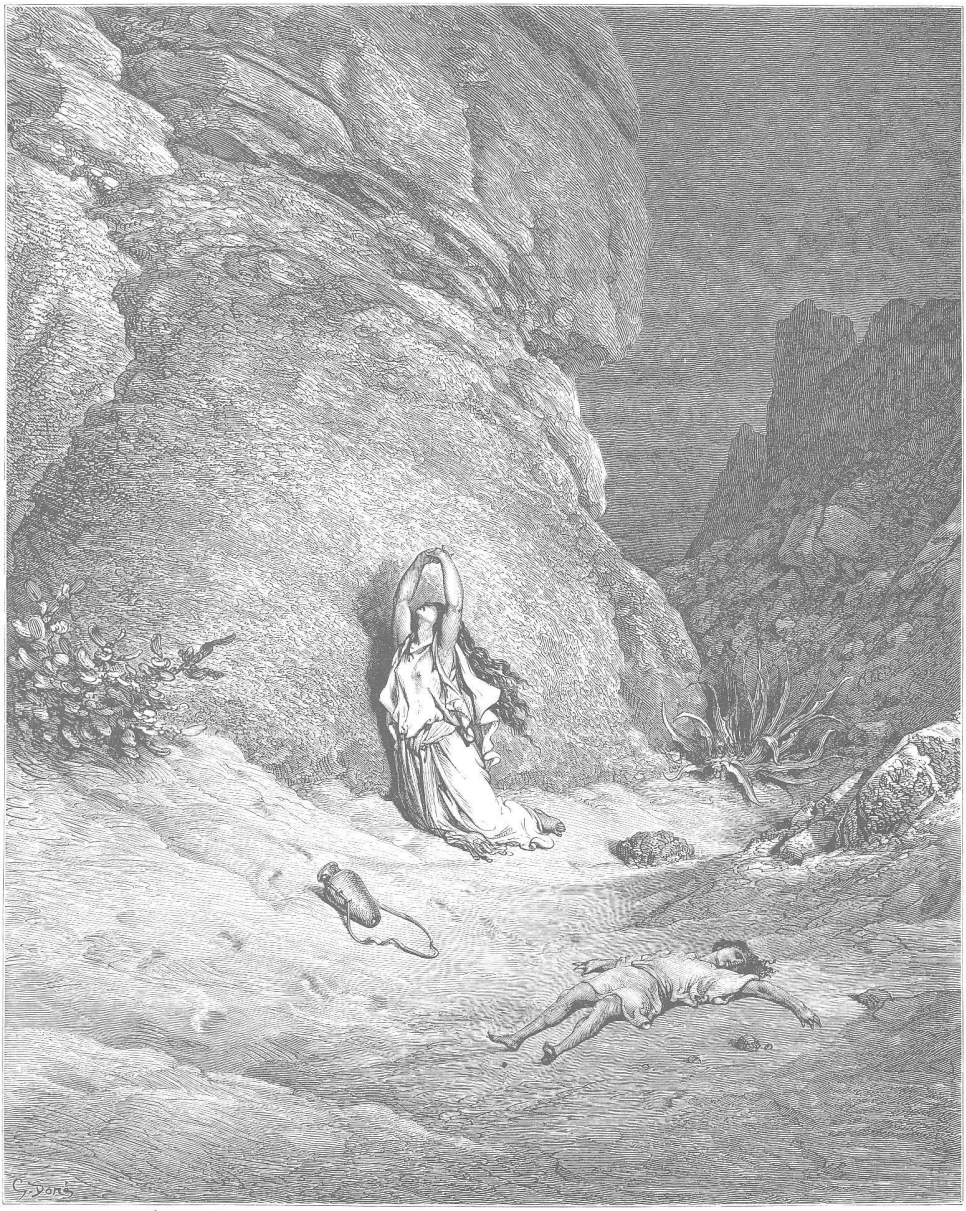

«فَسَمِعَ اَللهُ صَوْتَ اَلْغُلاَمِ، وَنَادَى مَلاَكُ اَللهِ هَاجَرَ مِنَ اَلسَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لِأَنَّ اَللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ اَلْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. قُومِي اَحْمِلِي اَلْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لِأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً» (تكوين ٢١: ١٧ و١٨)

ألبعازر ورفقة *by Gustave Doré*

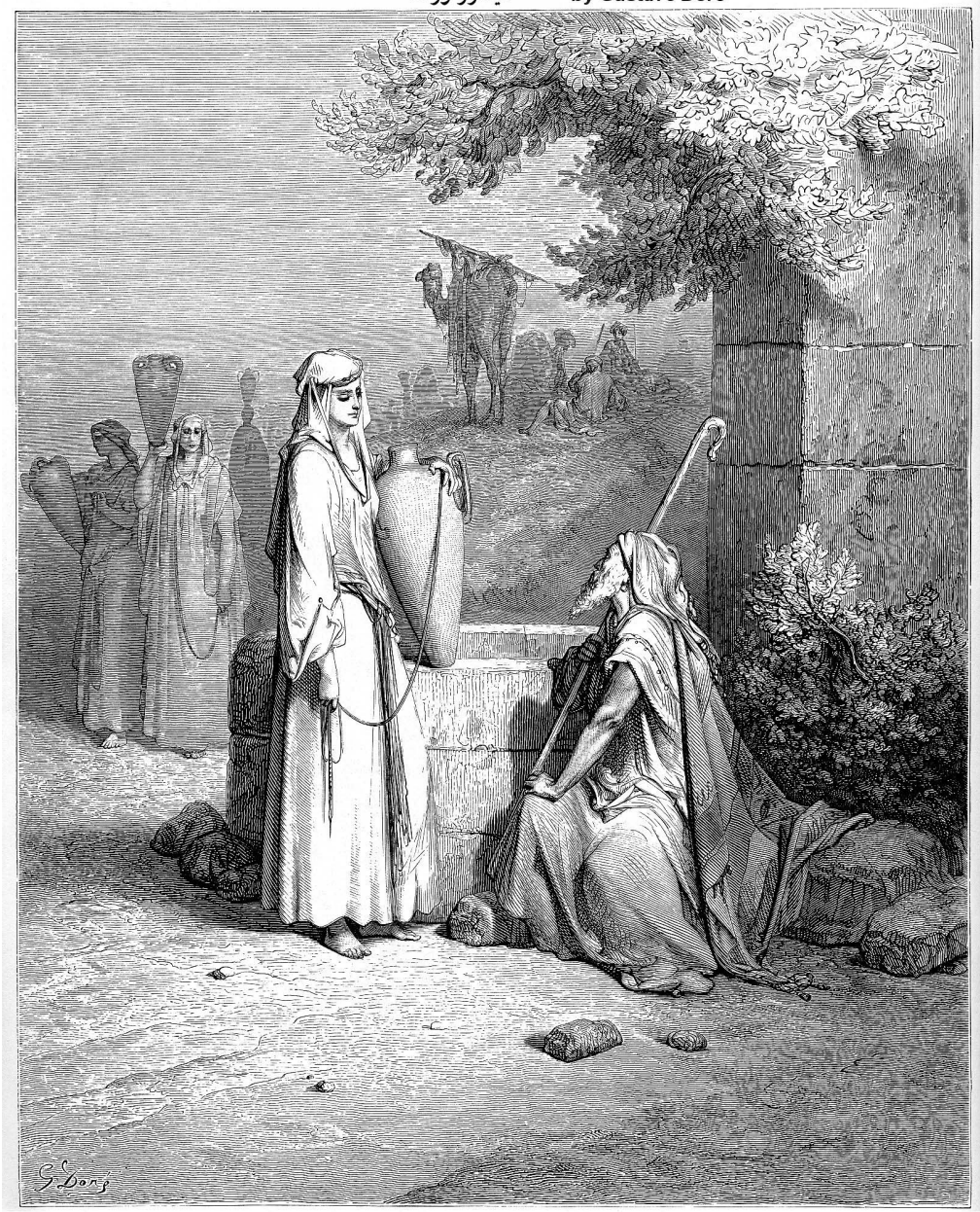

«وَكَانَتِ ٱلْفَتَاةُ حَسَنَةَ ٱلْمَنْظَرِ جِدًّا، وَعَذْرَاءَ لَمْ يَعْرِفْهَا رَجُلٌ. فَنَزَلَتْ إِلَى ٱلْعَيْنِ وَمَلَأَتْ جَرَّتَهَا وَطَلَعَتْ» (تكوين ٢٤: ١٦)

إسحاق يبارك يعقوب *by Gustave Doré*

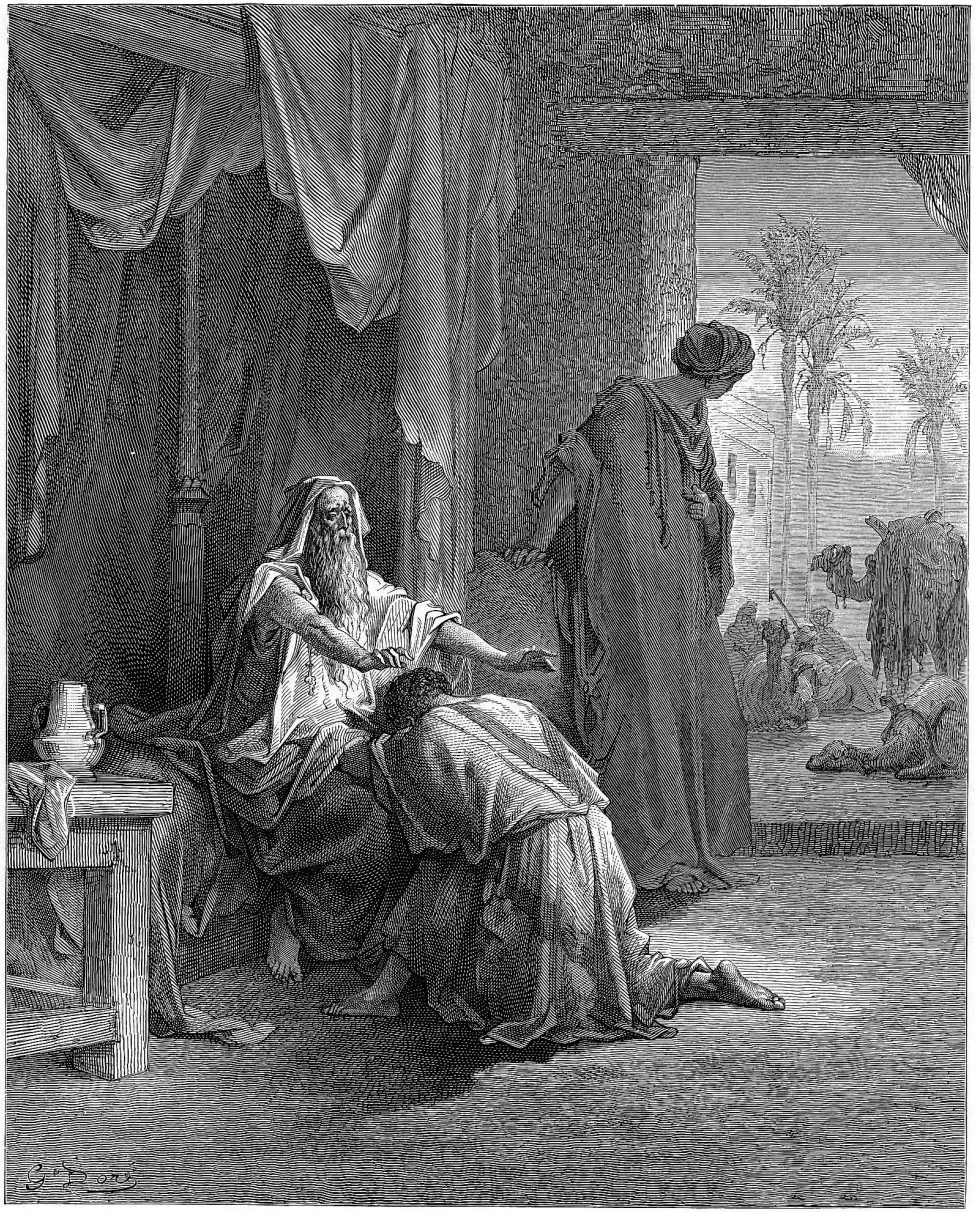

لِيَسْتَعْبِدْ لَكَ شُعُوبٌ، وَتَسْجُدْ لَكَ قَبَائِلُ. كُنْ سَيِّدًا لِإِخْوَتِكَ، وَلْيَسْجُدْ لَكَ بَنُو أُمِّكَ.
لِيَكُنْ لَاعِنُوكَ مَلْعُونِينَ، وَمُبَارِكُوكَ مُبَارَكِينَ» (تكوين (٢٧ : ٢٩)

حلم يعقوب *by Gustave Doré*

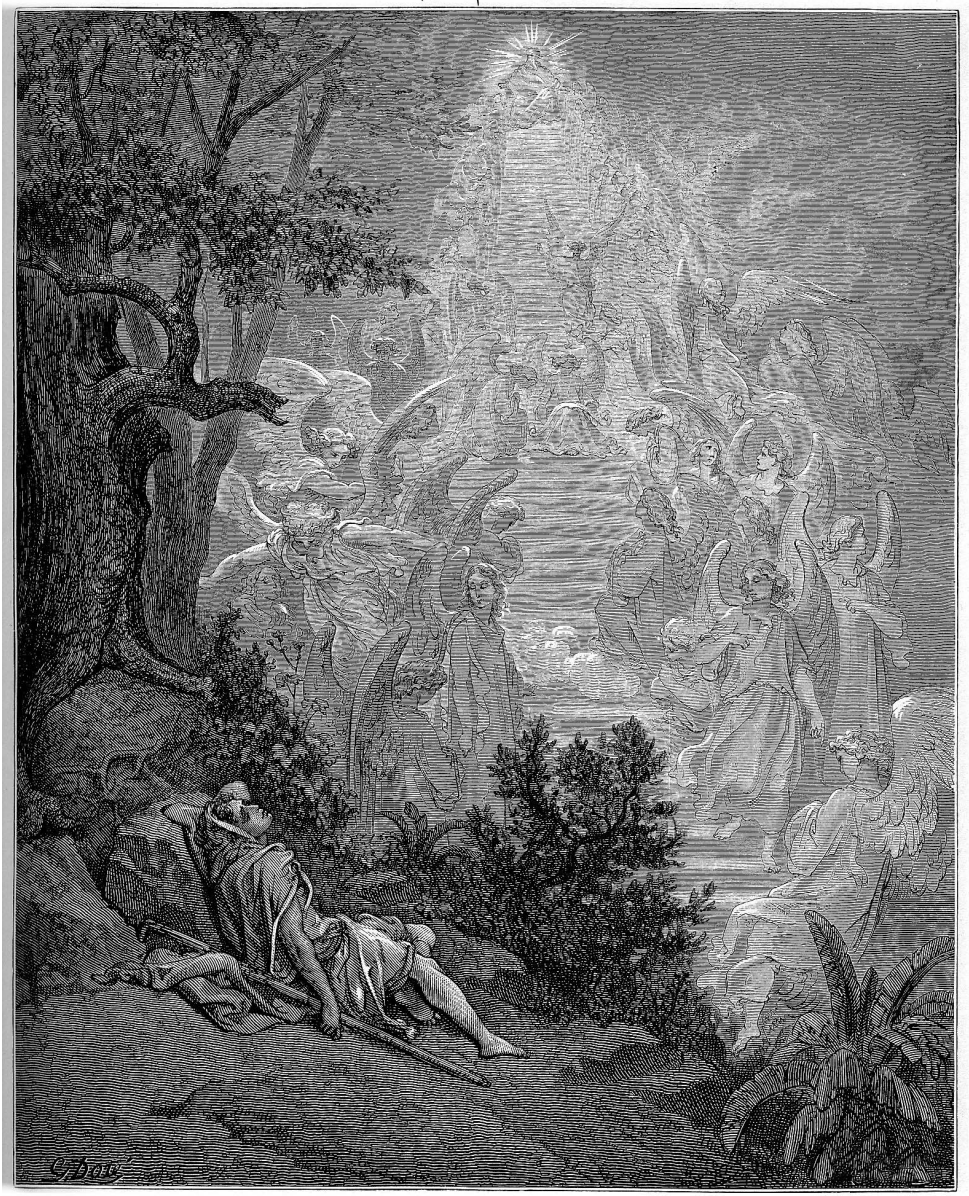

«وَرَأَى حُلْمًا، وَإِذَا سُلَّمٌ مَنْصُوبَةٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ وَرَأْسُهَا يَمَسُّ ٱلسَّمَاءَ، وَهُوَذَا مَلَائِكَةُ ٱللهِ صَاعِدَةٌ وَنَازِلَةٌ عَلَيْهَا.»
(تكوين ٢٨ : ١٢)

بيع يوسف الصِّدِّيق *by Gustave Doré*

«وَٱجْتَازَ رِجَالٌ مِدْيَانِيُّونَ تُجَّارٌ، فَسَحَبُوا يُوسُفَ وَأَصْعَدُوهُ مِنَ ٱلْبِئْرِ، وَبَاعُوا يُوسُفَ لِلإِسْمَاعِيلِيِّينَ بِعِشْرِينَ مِنَ ٱلْفِضَّةِ. فَأَتَوْا بِيُوسُفَ إِلَى مِصْرَ.» (تكوين ٣٧: ٢٨)

يعقوب يصارع الملاك *by Gustave Doré*

« فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ ٱلْفَجْرِ. » (تكوين ٣٢: ٢٤)